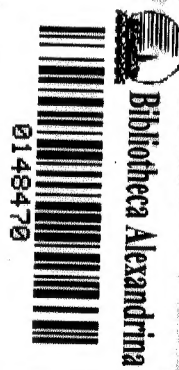


زكي مبارك

مدارج العُشَّاء

وَالرَّاجِحِيَّة
بَیروت



ترکی مبارک

مَدْرَاجُ الْعُشَّاءِ

وَلَدُ الْجَمِيلِ
بَیروت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الاهتداء

مدامع العشاق

إلى تلك النفس التي لا يعنيتها من أمري شيء ، والتي أخلفت ما أخلفت من
الوعود ، ونسيت ما نسيت من العهود ، والتي شغلت بنعمة المال ، والجمال ، عما
أقاسي من محنة وعذاب ، والتي ما أحسبني أطمع في أن تسكن إلي ، أوتعطف
علي ، إلى تلك النفس الظلوم : أهدي هذا السفر الحزين !
ولست آمل والحمد لله والحب ، أن تتوجه بالقبول ، فان هذا أمل عزيز
المنال ، وكل ما أصبو إليه : أن تنفخني من أجله بظلم جديد .
فبعض الظالمين وإن تناهى شهى الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

مقدمة الصليحة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ !

آية كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكنني أريدها بمعنى خاص :
هو الحكم على الاقوال والافعال .

وبيان ذلك اننا نرى غيرنا يقول ، او يعمل ، فنحكم عليه بالبر أو الفجور ،
فتارة نخطئ ، وتارة نصيب . واكثر ما نكون شططاً إذا حكمنا على القول ،
أو الفعل ، من غير ان نحيط خبراً بظروف القائل ، أو الفاعل . وهي وحدها
محور الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب . فليست كل كلمة يكفر قائلها كما
يقول الفقهاء بكفرة ، ما لم تشهد القرائن على ان قائلها معاند جحود ، وليست
القصاصد الحمرة شهادة على قائلها بالاثم ولا قصائد التشبيب رمية لصاحبها
بالفسوق ، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما
قال ، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث
فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر
أو فعل ظاهره المجنون .

وليس في ذلك خروج على اصول الدين ، فقد قال عليه السلام : «إنما الاعمال
بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، وليس لمتعنت ان يرد علينا بان هذا خاص

بأعمال الخير ، لا الشر . فانه كما يجوز ان يفسد الخير حين يراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقتصرون في ارشاد الناس إلى نتائج اعمالهم ، وما لها من الضر ، والنفع ، لتتأثر النيات والاعمال .

وإذا أباح لك حسن النية ان تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله ، من غير أن تلم الإمامة بالأسباب القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول ، وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله ، فمن الواجب ان تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب .

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد ان يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي احدثت به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال ان تسود كتابته فكرة كانت في عصره حسنة ، وهي عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء .

٢

ولنرجع الى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فاني لا اكنتم القراء اني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه . مع اني اعرف اني كتبتها من قبل ، وانا نقي القلب ، خالص الضمير . ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لاهل الجمال ، وهي سداجة طريفة ، تمثل عهداً من عهود الصبا ، خيل إلي فيه ان الحسن يجب ان يكون ملكاً لجميع العيون ، تهتمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور ، ولا يجربها عنه ضنين . وليس في مقدوري الآن ان اكتب مثل تلك الكلمة ، لاني حرمت من تلك السداجة ، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلؤم من بعدهم الكريم ، وحاشاي ! وسأفرض الآن اني في العهد الاول من عهود الشباب ، وان الناس كما كنت احسبهم منذ سنين اطهاراً برة ، لا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتقولون الا قوايل ، ولأذكر طرفاً من ذلك الخطاب :

يا أرباب الجمال !

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثماً ، ويأكله التراب أكلاً ؟

كم صائن عن قبلة خده سلطت الارض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الحدود ،
والمراد من الجفون ، والمسايك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والفلائل
من الأعطاف ، والزينة من الأطراف .. فلم تحرمونا في حبنا لكم ، وإشفاقاً عليكم
بما تكرمون به الجبال ليلاً ونهاراً ، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن ،
وأحدق به من جمال ؟ !

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في القفار ، تزهّر ، ثم تذبل ، ولا يتمتع أحد
بشمتها ، ولثمتها ، وإنما خلقكم روحاً لكل حي ، ونعمياً لكل موجود ، فاجعلوا
لنا منكم حظاً ، ولا أقل من النظر ، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم ،
وقوت بصدكم ، وما الله بغافل عما تعملون ! !

يا أعلام الحسن !

إن كنتم فطرتم على العزة ، وجبلتم على النخوة ، فهبونا بعض القرب منكم ،
والأنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد
عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذلتنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى
بالحب جمالاً وبالعشق زينة ، وإن الحب المملول ، خير من الجيب المملول ، فإن
أبيتكم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والاهراض ، فانا نبشركم بأن الحسن حال
تحول ، ودولة تدول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين !

أوردية الحدين من طرف الصبا ويا ابنة ذي الاقدام بالفرس الورود
صلي واغمني شكرأفما وردة الربى تدوم على حال ولا وردة الحد

٣

ولقد يعجب قارئ هذا الخطاب حين يرى كاتباً يعتقد أن الجمال ملك
العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس
الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها لا يسلم من الاسراف ، ورسم الله ذلك

المهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود !

ليالي لا تنجو بنبلى خريده وإن عز حاميتها وجم عديدها
إذا ما رمتني ذات دل رمتها بعين لها منها مقيد يقيدها

على أنني لا أمنع أحداً من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين ، فإن الذي
يطمع في معرفة النفس البشرية ، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ، ليسهل عليه
وعلى غيره التحليل ، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه ، لا يبخل بتوضيح
نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون
أهواءهم ، وشهواتهم ، فينسبون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بالسنه حداد ؟
إن قليلا من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار ، حين الحكم
على ما يعمل الناس وما يقولون .

٤

وليت الامر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدام
المشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة ، موجبة
إلى إحدى العذارى

« قضي الامر ، واصبحت حياً كمت ، وموجوداً كمعدوم ! فما ضرتني لو
أذعت هذا الحب ، وما أبقى هواك مني ما أسمع به ملاماً أو أرى وجهه
عدول ؟

على أن قلبي يحدثنني بأن الاشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين ،
وما إلى ردعهم سبيل ! وأنت المعنية بهذا الاشفاق ، أما أنا فما كنت لأرهب
قوماً لا سلاح لهم غير القيل والقال .

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهما بقتلي يا بئين لقسوتي
إذا ما رأوني طالماً من ثنية يقولون : من هذا ! وقد عرفوني

وبعد فانه لم يبق ما أسكن اليه في هذا الوجود غير حديث الحب ، وبلايا
الحبين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم :
وهو النسب ، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا اليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما

لها من سبب قريب أو بعيد ، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع
المفسوح ، عدت فصاحت الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى ،
وبينت مهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الحدود القوانن ، والعيون الفواتك ،
ولن أخرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الحصر النحيل ، والردف الثقيل ،
وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب
والكهول ، ولن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا
الحديث .

نصحتك علماً بالهوى ، والذي أرى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

٥

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة ، فضلاً عما فيه من
المجازفة ، في حمل إثم الآثمين ، وفتك الفاتكين ، ولقد آذنتني آثامي ، فكيف
أحمل آصار الناس !

ولم ير ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الاسبوعية ، وبدون
أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد ، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة
القاسية :

« في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الفطرسة والكبرياء والكتاب الجاد
في نظرهم هو الرجل السليط ، الذي يخيل اليه كما كتب : أنه قسيس في كنيسة
حافلة ، أو خطيب في مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعند
المنكرات ! ؟ فأما الكتاب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ،
وبدائع الجمال ، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع ! !

ولا أدري بماذا يحيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة ، التي
طارت بالباب الشعراء ؟ وصيرتهم في كل واد يهيمنون ؟ أترام يقولون انها من
خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ فإذا كانت من خلق الله ، فلم ينكروا علينا
أن نتغنى بصنعه البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان ، فلم لا يحجون الحسن
من وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

أمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب !

يريد جماعة من أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعوا عن صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن اجارهم في عمايتهم ، وأن أسايرهم في جهالتهم ، فلا أكتب في غير ما يروقهم من ذم الدنيا ، والتبرم بالوجود ! ولكنني عرفت ما لم يعرفوا من « أفنان الجمال » في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على ان يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان ، فعدت خليقاً بحمد الحسن ، والتقديس له ، كلما أمعنوا هم في الجحود !

يقولون ان مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال ، وماله من الاثر في تهذيب النفوس ، وثقيف العقول ويهددون ويوعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف ! فهل حسب هؤلاء السفهاء أي. أكتب لهم حق أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أبيناً أن نطيعكم أبيناً فلا تلقوا نصيحتكم اليينا
ركبنا في الهوى خطراً فلما لنا ما قد كسبنا. أو علمنا
ولو لم يرض ربك ما أردنا لما أعطى لنا أذننا وعينا
فما تسألكم عن كل صب كأن لكم على العشاق ديننا

٦

إلى هنا وقف القارئ ، على ألوان من الخواطر ، مرت بخاطر شاب بهم بالتمرد على ما ألف الناس ، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي الرياء ، فأنا بصريح القول : موكل بالحسن أتبعه ، ومفرم بالتغريد على أفنان الجمال . وإني لأقول :

اشجأك ما خلف الستار وإنما خلف الستائر أو لا مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا أني بكل حسانهم مفتون

واقول :

فيا رب إما رمت لي الخير منعماً ففي قرب من اهوى وبعداخي اللوم

وإن كان لي فيما قضيت مساءً فحزن على النائن جبرتي القدم
وإن شئت لي يوماً جوارك فلا تكن شهيد الجوى لا نضوهم ولا سقم
وطول حسابي في المعاد على الهوى فطول احاديث الصباية من همي
وما كان اغنائي عن الفزع إلى حكم الاخلاق، لارجع الخير والشر إلى النيات،
لا إلى الاعمال، فقد آن لنا ان نعرف ان من الحق، بل من الواجب، ان
ندرس الجمال، وان نتغنى به، وان نصفه بالثر البليغ، والشعر الجميل، وأن
نكتب عن كلفوا بالحسن: من العشاق، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله انه قال: (ان الله ليعجب من شاب لا صبوة
له) وأنا لا اريد ان يعجب الله مني ! وسينكر المتعنتون هذا الحديث، وأنا
قبلهم لا أجزم بصحته، ولكنني اثق بأنه يقرر حقيقة واقعة، فما كان الله
ليخلق الجمال لنعمى عنه، او ليرمي عشاقه بالاثم والفجور، وهؤلاء المتزمتون
الاغبياء لا يملون من الدعوة الى الاستمتاع بجمال الطبيعة، لهم الويل ! وهل
الانسان إلا لباب الطبيعة، وسرها المكنون ؟ !

وماذا اصنع بالاشجار، والازهار، والثمار، والانهار، والكواكب،
والنجوم، والسهول، والحزون، والجمال، والوديان، والطيور الصواوح،
والظباء السوانح ؟؟

ماذا اصنع بكل اولئك، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول، واساجله
الحديث، واساقيه صباه هذا الوجود ؟ !

وهذا الانسان ؟ أليس لي الحق في اختياره، قبل اصطفائه، وكيف أختاره
إن لم احكم الذوق، في تمييز جسمه وروحه، وعقله وشعوره، وحسه ووجدانه؟
وما قيمة الليل ان لم تظلني في الحب ظمأؤه ؟ وما جمال الاغصان إن لم تهزني
إلى ضم القدود، وما حسن الازهار ان لم تشقني الى لثم الخدود ؟ وكيف اميل
إلى الظباء، لو لم تشبه بعيونها واجيادها، ما للحسان من اعناق وعيون ؟
وكيف اصبو إلى غمة الغزال، لولا ذكرى تلك النبرات العذاب، التي يسمونها
السحر الحلال ؟

وانك لتعلم أيها القمر ، كيف كنت اصدف عنك ، وانا اطالع ذلك الوجه ،
الذي نعمت معي بشغره المفلج ، وانفه الاقنى ، وطرفه الاحور ، وجبينه
الوضاح ، وانك لتعلم أيها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم اني لا انظر
إليك إلا حين السرار ، لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك
الليالي ! وانها لشاة طفيفة ، احزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه
وعلى عودتك لشبابك ، في حين اودع كل يوم جزءاً من شبائي ، وواحسرتاه على
ما اودع من اجزاء الشباب !!

لأصبحت نهب الاسى والحزن لجسم اقام وقلب ظمن
فيا ويجهم يزمعون الرحيل وما زودوني غير الشجن
دموع تحدر فوق الحدود كصوب الغمام إذا ما هتن
وقلب يقلب بين الضلوع بعيد القرار فتقيد السكن
وأصبحت والرأس مرعى المشيب قليل السرور كثير الحزن
لعمري لئن شئت قبل الاوان لقد شاب حظي وشاب الزمن
كأن الشهور عراها البياض سهام الردى او خيوط الكفن
وإن الشباب اذا ما انقضى لكالحلم اقلع عنه الوسن

٧

أما بعد فقد اخرجنا للناس كتاب « الاخلاق عند الغزالي » فرمونا من اجله
بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ؟ وسيرموننا من اجله بالفجور ،
ومنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب « آراء الجاحظ الفلسفية والادبية »
وكتاب « افنان الجمال » ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب !
وقد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها او عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكي مبارك

سنترس في ١٢ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشقى به المحب ، وما ينعم به الجيب ! ويمكن رجوع كلامهم في النسيب إلى اصلين اثنين :

الاول - وصف ما يلاقي المحبون من عنت الحب . ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويشير الدمع ، كحديث الفراق ، والعتاب ، والذكرى ، والحنين .
الثاني - وصف ما يرى الشعراء في احبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ؛ والعين ، من جمال الابدان والارواح ، كوصف العيون ، والحدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق ، والوفاء والعفات .

وقد رأيت ان افصل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى به المحبون في كتاب اسميه « مدامع العشاق » وان اشرح مذاهبهم في الكلام عن الحسن في كتاب اسميه « افنان الجمال » .

وكان الواجب ان نبدا بطبيع « افنان الجمال » لانه اوفى وامتع ، ولأن افنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق .

ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلنتابعها في الظلم ، ولنقدم الفروع على الاصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن اسباب البكاء ، وموجبات المدامع
ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد ان كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد ان
كانت حمراء !!

وللدموع اسباب عامة ، واسباب خاصة . فأما الاسباب العامة فهي الحرق
الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما الى ذلك من البث والحزن ، واللوعة والحسرة ،
فمن هذا قول العباس بن الاحنف :

ظلمت عيناك عيني انها بادلتها بالرقاد الأرقا
سلط الشوق على الدمع فما هب داعي الشوق إلا اندفقا
وما كان له ان ينسب الى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد . وخير منه قول
صريع الغواني :
أسهرتوني أنام الله أعينكم لسننا نبالي إذا ما نمت من سهر
ولو قال :

رحمت عيناك عيني انها بادلتها بالرقاد الأرقا
لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل ، فيحسب المحب ما أهدته عينه
حبيبه من ضنى الجسم ، وسهد الجفون . وقال البحتري :
قد أرتك الدموع يوم تولت ظعن الحى ما وراء الدموع (١)
عبرات ملء الجفون مرتها حرق للفؤاد ملء الضلوع (٢)

(١) الظعن والظمائن : جمع ظمينة ، وهي المرأة في الهودج
(٢) يقال مرى الراعي الناقة : إذا مسح ضرعها لتدر اللبن . ويريد الشاعر أن يقول ان
اللوعة مورت الدمع ، أي حملته على ان يفيض .

فرقة لم تدع لميني محب منظرأ بالعقيق غير الربوع
ولا أدري ما الذي أراده البحري بما وراء الدموع ! أهو الدم الاحمر الذي
تجود به الشئون عندما تفيض المدامع ، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبيء عنها
الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضي :

يقولون ما أبقيت للعين عبرة فقلت جوى لو تعلمون أليم
أسمع جفني بالدموع وأغتدي ضيناً بها ؟ اني إذن للثيم
ولو بخات عيني إذن لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجبه ، والداعي
إليه ، وانه لشعر بديع . أما الاسباب الخاصة فهي كثيرة . فمن العشاق من يبكي
لتلمس الاخبار ، كما قال ابن هرم .

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي
فان ذكرت فاضت من العين عبرة على لحقي نثر الجمان من المقد

واني ليرقني قوله (وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي) فانه يدل على حيرة
وله ، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئاً ، استرواحاً بالسؤال عنها ،
وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية
في هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام :

أجلى الرجال من النساء مواقعاً من كان أشبههم بهن خدودا

وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنائته على الشباب !
ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم . كما قال ابن الدمينه :

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة وحر على الاحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يا مي كلما بدا علم من أرضكم لم يكن يبدا

وما كان الحب زفرة ولا عبرة ، كما قال ابن الدمينه — ولكنه شيء به الروح
تكلف — وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني :

قال الخلي الهوى محال فقلت لو ذقته عرفته
فقال هل غير شغل قلب إن انت لم ترضه صرفته

وهلى سوى زفرة ودمع إن لم ترد جريه ككفته
 فقلت من بعد كل وصف لم تعرف الحب إذ وصفته
 ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض ، إذ تذكره رشاقة اغصانها ، وحررة
 ازهارها ، بالقدود الرشيقة ، والحدود الوردية ، كما قال ابن المعتز :
 وقفت بالروض ابكي فقد مشبهه وقد بكت بدموعي عين الزهر
 لو لم تعرفها الجفون الدمع تسفحه لرحمني لاستعارته من المطر
 وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم ! وإنما كانت
 تسعد الحماهم ويبكي الرقيق (١) .

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم . كما قال بعض الاعراب :
 لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا بدراء إلا ان تهب جنوب
 أعاشري في (داراء) من لا احبه وبالرمل مهجور إلي حبيب (٢)
 إذا هب علوي الرياح وجدتني كأني لعلوي الرياح نسيب (٣)
 ومنهم من يبكي لبكاء الحماهم ، وهو كثير في كلامهم . ولعل من أبدعه
 واروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه :

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن (٤)
 ذكرت إلفاً وعيشاً سالفاً فبكت حزناً فهاجت حزني
 فبكائي ربما أرقها وبكائها ربما أرقني
 ولقد تشككو فيما افهمها ولقد اشكو فيما تفهمني
 غير أنني بالجوى اعرفها وهي أيضاً بالجوى تعرفني
 أترأها بالبكا مولعة أم سقاها البين ما جرعني
 وهذه الابيات من احسن الشعر تقسيماً ، وابرعه تصويراً ، ولقد افتتح بها

(١) الاسعاد هو المشاركة في البكاء

(٢) داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل.

(٣) علوي نسبة شاذة الى عالية نجد

(٤) الوراق هي الحمامة ، والشجو الحزن ، والفنن النصفن ويجمع على أفنان.

الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظناً منهم انها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الاحياء على حساب الاموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

وبما ابتدعه المتأخرون في موجب البكاء ، ما جعله بعضهم عقاباً للعين ، جزاء بما اهدت نظراتها للقلب من شجى ، وللجسم من نحول ، فقال :

لأعذب العين غير مفكر فيما جرت بالدمع واسالت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيله حتى يعود على الجفون محرما
حي اوقعتني في حباثل فتنة لولم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلاسفنحن دموعها وهي التي بدأت فكانت اظاما

وهو مذهب غريب ، يدل على مبالغ صاحبه من إدراك الحسن ، وفهم الجمال !
ولأفأي عاشق يذكر جنائية النظر عليه ، ولا يدعو لعينه بطول البقاء . والله
در القائل :

قالت اترقد إذ غبنا ؟ فقلت لها نعم ، وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم اني اعذبه بالنوح والسهر
ومنهم من جعل الدمع غسلا للعين مما زنت بالنظر ، فقال :
وقائلة ما بال عينك مذ رأت محاسن هذا الطي ادمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فحق لها من فيض مدمعها غسل
وقال الآخر :

إنسانة فتانة بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بها فبالدموع تغتسل
وهو خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !!

وقد نظر الارجاني إلى قول ابي تمام :

بسطت اليك بنانه اسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا (١)

(١) الاسروع ويجمع على اساريع دود ابيض احمر الرأس يشبه به العرب الاثمل الرقيقة .

كادت لعرفان النوى ألفاظها من رقة الشكوى تكون دموعا
فولد منه معنى لطيفا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدثت كالآلي
بقية ما نقشه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس . وذلك قوله :

لم يكنني إلا حديث فراقهم لما أسر به إلي مودعي
هو ذلك الدر الذي أودعته في مسمعي ألقيته من مدمعي



أما السبب في احمرار الدموع فلم أجده فيه إبانغ من قول صردر :

حتم ارفعى وردة لا تجتنى في الحد او تفاحسة لا تلثم
أيضاد عن تلك المحاسن ناظري ويريد مني ان يسوغها الفم
في كل يوم للعيون وقائع إنسانها الطباح فيها يكلم
لو لم تكن جرحى غداة لقائهم ما كان يجري من ما فيها الدم
لم أدر ان الحب حومة مأزق تصلى ولا ان اللوا حظ اسلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد :

يا واشيا حسنت فينا إساءته نجى حذارك انساني من الفرق
اني اسد دموعا ليج سائقها مطروفة العين بالمرضى من الحدق

ويرى القارىء ان اصحاب هذه الاخيلة الشعرية ، يرون ان احمرار الدموع
انما هو اثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق . فيا لها من حرب
ضروس تطأ فيها اقدام الجنس اللطيف اعناق الجنس النشيط . ولما بهذه الهزيمة
لفرحون !!

وكان عجيباً ان تبيض الدموع بعد احمرارها !! وقد رأينا كيف أولوا
احمرار الدموع . ولندكر ان اصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول :

أتبعتهم يوم استقل فريقتهم نظر المشوق وانه المفجوع
لم تبك يوم فراقهم عيني دماً إلا وقد نزل البكاء دموعي

والآن نريد ان نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد ان صيرها الحزن
حجراً . فمن الشعراء من يرى الدمع الابيض ماء ورد الحدود التي قطفها بعينيه

عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء :

كانت دموعي حمراً يوم يديهم
قطفت باللمحظ ورد أمن خدودهم
فمذناًوا قصرتها بعدهم حرقى
فاستقطر البين ماء الورد من حدى

ومنهم من جعله شيباً للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله :

قالت عهدتك تبكي دماً اطول التنائي

فلم تعوضت عنا بعد الدماء بماء

فقلت ما ذاك منى لسوء وعزاء

لكن دموعي شابت لطول عمر بكائي

وأشجى منه قول الآخر :

وقائلة ما بال دمعك أبيضاً فقلت لها يا عز هذا الذي بقي

ألم تعلمي أن البكا طال عمره فشابت دموعي مثل ماشاب مفترقي

وعما قليل لا دموعي ولا دمي ترين ولكن لوعتي وتحرقى

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزناً ، وأغزره دمعاً ، وهل تجد أدعى

للشجو والبث من قوله :

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي !!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون ، والغليل

على الضلوع :

عما بعدكم تلك العيون بكائها وغال بكم تلك الاضالع غولها

فمن ناظر لم يبق إلا دموعه ومن مهجة لم يبق إلا غليلها

دعوا لي قلباً بالغرام اذيبه عليكم وعيناً في الطلول اجيلها

ويذكر الشعراء ان الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء .

ولهم في ذلك فنون من القول ، وشجون من الحديث ، وأجل ما رأيت في ذلك

قول خالد السكاك في رفق عذاله به ، وإسعادهم له :

بكى عاذلي من رحمة فرحته وكم مسعد لي في الهوى ومعين

ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر ارباب الدموع

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
 إن القتل مبلا بدموعه مثل القتل مضرراً بدمائه
 نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى عذالهم .
 وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع ، وداعي البكاء . والشعراء فيه رجلا
 رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة : فباح بكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل
 تخوف الرقباء ، وتهيب العذال ، فأخذ يخلق العمل ، وينتحل الأسباب ، دفعاً
 الكيد الواشين ، ودراً لعذل اللاتمين ... فمن الأول قول البحتري :

سارت مقدمة الدموع وخلفت حرقاً توقد في الحشا ما ترحل
 إن الفراق كما علمت فخلني ومدامعاً تسع الفراق وتفضل
 إلا يكن صبر جميل فالهوى نشوان يحمل فيه ما لا يحمل
 وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو خير من قول
 ذي الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد ان يشفى شجي البلابل .
 والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس الممنى :
 والصبر أجمل غير أن تلدأ في الحب أخرى ان يكون جميلاً
 وقال البحتري في الاعتذار عن البكاء :

لا تلمني على البكاء فاني نضو شجو ما ملت فيه البكاء
 عذلاً يترك الحنين أنيناً في هوى يترك الدموع دماء
 كيف أغدو من الصبابة خلواً بعد ما راحت الديار خلاء
 ومن يدع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب :

عش فحببك سريعاً قاتلي والضنى إن لم تصلني واصلني
 ظفر الحب بقلب دنف فيك والسقم يحسم ناحل

فهما بين اكتئاب وضنى صيراني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة فبكائي لبكاء العاذل
وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة : فقد يندر أن يبكيه
اللائمون رفقا بالحب الحزين !

وما انتحل فيه الشعراء للبكاء اسباباً غير اسبابه قول كثير :
إذا زرفت عيناى أعتل بالقذى وعزة لو يدري الطبيب قذاهما
وهو نوع من الكتمان يفزع اليه الشعراء عند اليأس من احبابهم :
يأس يحسن لي التستر فاعلمي لو كنت اطمع فيك لم أتستر
ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ، وقد استجيا من
صديقه :

كم من صديق لي أسا رقه البكاء من الحياء
فاذا تأمل لأمني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداء



الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط . ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب :

فان تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا
فهلأ تمنعتم إذ منعتهم حديثها خيالا يوافيني على النأي هاديا
وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن :
أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وارى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

وما الذي يضير اعداء الحب من ان يرى القمر كما تراه ، ويعلوها النهار كما علاه ، ما داموا قد ابعده عنها ، وحرموه منها . وقد تنبه بعض الاعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال :

ربك هل ضمنت اليك ليلى قبيل الصبح او قبلت فاهها
وهل رفت عليك فروع ليلى رفيف الاقحوانه في شذاها
على انه لا ينبغي ان لا ينسينا جمال هذا الحيال ما في شعر جحدر وامثاله
من روعة الصدق ، وجلال الوفاء . وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح
البكاء اشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو الحب ولا أمل له في غير الوجسد
المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من اجل هذا تخالف استاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ورجوه ان يصفح
عن اعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم :

فان يحبوها او يحل دون وصلها مقالة واشر او وعيد اسير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد اجن ضميري
إلى الله اشكو ما الاقي من الهوى ومن كرب تعتادني وزفير

ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير
 سأكبي على نفسي بعين قريحة بكاء حزين في الوثاق اسير
 وكنا جميعاً قبل ان تظهرى النوى بأنعم حالي غبطة وسرور
 فما برح الواشون حتى بدت لنا بطون الهوى مقلوبة لظهور
 لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا ولكننا الدنيا متاع غرور
 وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الانسانية أجمل تصوير ، وتمثيلها ادق
 تمثيل . ألم تر إلى الشاعر وقد اوجز في قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو إلى
 الله لوعته ، وحرقة ، ولياليه الطوال !! ألم تر اليه وقد كان يحسب الدمع
 نعمة سابغة يكبت بخلودها الاعداء ، فماد يرى الدمع آية الذل والمسكنة ، وآخر
 ما يفزع اليه الاذلاء المساكين !!



الفرع الى الدموع

قال ابو بكر بن عياش : نزلت بي مصيبة اوجعتني فذكرت قول ذي الرمة :
لعل الخدار الدمع يعقب راحة من الوجد او يشفي مشجي البلبل
فخلوت فبكيت فسلوت !! ولست ادري كيف تذهب بالوجد زفرة ، او
تودي به عبرة ، وهو كما قيل :

ظن الهوى لبسة تبلى فيخلعها فكان في الروح مثل الروح في البدن
و كنت اسمي هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ، وفقاً لما يحنح اليه
الشعراء ، ولكنني رأيت ان اسميه « فزعاً إلى الدموع » حين تبينت ان الدمع
لا يطفئ اللوعة ، وانه نار حامية ، لا برد وسلام !!
وهل تجد ادعى للبث ، واجلب للحزن ، من قول كثير ، وقد ترحلت
حبيته :

كفى حزناً للعين ان رد طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا اشفى إذن للغليل
قوليت محزوناً وقلت لصاحبي اقاتلني ليلي بغير قتيل
وما اختار البكاء لانه اشفى للغليل كما قال . ولكنه اختاره ليفر من الصبر
الذي رآه مر المذاق !! وقد حسب بعض الشعراء ان التفضيل بين الصبر والبكاء
بما ينال ، وفي ذلك يقول :

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا اجاب البكا طوعاً ولم يحب الصبر

وهو ضلال مبين : فان البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض عليه
انقضااض الصاعقة ، فاذا هو صريع ! وامثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم
المقيم . ولكنهم يمتنون على احبايهم بهذا الدمع المجلوب .

ومن الشعراء من تنبه إلى ان السلامة من الجوى امض من الجوى ، وهؤلاء

يكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم « ومن اسماء الحب الضلال » ومن مختار
الشعر في هذا البكاء قول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتهم ثم لم ابكم بكيت على حيي الزائل
واوجع منه قول البحري :

وأود اني ما قضيت لبانتي منكم ولا اني شفيت غليلي
واعد برئي من هواك جناية والبرء اعظم غناية المحبوس

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه في السلوة ، ولا في البكاء .. وهل
السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرأيت آدم وقد خرج من
الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هي سر ما يعتادنا من انين قد
قد لا نعرف له سبباً قريباً ؟ وهل البكاء إلا اثر من آثار الوجد يخشع لرهبته
غلاظ الأكباد ، ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحري افصح عنها بقوله :

وأود ما اني ما قضيت لبانتي منكم ولا اني شفيت غليلي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول :

قف مشوقاً او مسعداً او حزيناً او معيناً او عاذراً او عذولاً
وخلاف الجليل قولك للذا كره عدا الايجاب صبراً جميلاً
عل ماء الدموع يخمد ناراً من جوى الحب او يبل غليلاً
وبكاء الديار بما يرد الشوق ذكرراً والحب نضواً ضئيلاً
لم يكن يوماً طويلاً بنهما ن ولكن كان البكاء طويلاً

ان فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية : فهي ليست موحدة المشاعر
والمدول . ولو جاز ان نجد نفساً خالدة الالم لفقد شقيقتها في عالم النفوس ، لجاز
ايضاً ان تكون في لوعتها الخالدة ذات تصاريف في الشكوى والالين ا وليس
طلب السلوة الا صرخة الوجد يعجز عن كبها المتيم المعاني : ومن الذي يحرم
على شقي ان يلتبس الى السعادة السبيل ؟ ومتى كان المحبون سمداء حتى يكون

طلب الخلاص من بلواهم كفرةً بنعمة الحب التي ابتلى الله بها اولئك الشهداء ؟ !
وقد يحسن ان ننشد القاريء قول البحترى نفسه :
قد كان مني الوجد غب تذكر ان كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعتك جامد ويرق قلبي حيث قلبك قاسي
ألا تراه جمل الوجد اثرأ للتذكر الذي حسب البكاء يفضي اليه فيريحه من
الشوق في قوله :

وبكاء الديار مما يرد الشوق « ذكرنا » والحب نضوا ضئيلا
فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داء تارة اخرى ! ولنا نتخذ من ذلك
دليلا يرضاه المنطق عن خلود العصابة ، والعالم كله لن يرزق الخلود ، ولكننا
نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتم الحزون ، فما يدري ايشفيه الدمع ، ام يزيد
لوعته اضطرابا ..

على انه لا عيب على الشاعر في ان « تتناقض » خواطره ، لان الشعر كالمراة
والنفس دنيا ثانية ، تراءى صورها المختلفة ؛ في لوحة الشعر الجميل .



الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق . فمن ذلك قول ابن الرومي :
لو كنت يوم الفراق حاضرا ومن يطفئ غلة الوجد
لم تر إلا دموع باكية تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد
وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه : وهو قول أبي
نواس في جنان :

يا قرأ أبصرت في مآثم يندب شجواً بين أتراب
يسكي فيذري الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال ، ونراها أخيلة عادية ليس لها جمال
خاص ، فقد يمد الشاعر في الجملة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخذها
الاسيل !! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله :

تلاقينا لقاء لافتراق كلانا منه ذو قلب مروع
فما افترت شفاه عن ثغور بل افترت جفون عن دموع

ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبي :

لما تقطعت الحمول تقطعت نفسي أسى وكأئن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب حاسناً حسن العزاء وقد جلبن قبيح
فيه مسامة ، وطرف شاخص وحشاً يذوب ومدمع مسفوح
يحدا الحمام ولو كوجدي لانبى شجر الاراك مع الحمام ينوح

وقال ميمار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات :

دعوني فلي ان زمت العيس وقفة أعلم فيها الصخر كيف يلين
وخلوا دموعي أو يقال نعم بكى وزفرة صدري أو يقال حزين

فلولا غليل الشوق أو دمة النوى لما خلقت لي اضلع وجفون
وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر :
إذا لم أفر منكم بوعده فنظرة اليكم فما نفمي بسمعي وناظري
وقال السري الرفاء في ذكر مظاهر الوداع : من اللوعة ، والحزن ، وتحديد
الحمد بالدمع ، مع ذهاب العزاء :

وقفنا النوى على الكره منا موقفاً ضم شائفاً ومشوقاً
حال ورد الحدود فأضحى الذرجس الغض بالدموع غريقاً
لوعة افرطت فعمادت حريقاً وحنين أربى فعماد شقيقاً
وخليق بلوعة الحب صب لم يكن بالعزاء فيه خليقاً
ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي :

ولما تواقفنا ذهلت ولم يحن لطير قلوب العاشقين وقوع
عشية لي من رقبة الحبي زاجر عن الدمع إلا أن تشد دموع
وقد امرت عيناك عيني بالبكا فقل لي أي الأمرين أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة : وهي ترتيب المعاني ترتيباً لولا حيرة المودع لكان
غاية في الوضوح . ولا يفوتنا ان نذكر هنا قول ابن زريق :

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا اودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وادمعي مستهلات وادمعه

ومن الشعراء من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا
عند الرحيل . فمن ذلك قول البحاري :

إن للبين نعمة لا تؤدي ويداً في تناضر بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراق كان داءً لعاشق ودواءً
أضحك البين يوم ذاك وأبكى كل ذي صبوة وسر وساء
فجعلنا الوداع فيه سلاماً وجعلنا الفراق فيه لقاءً

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء :

لم أنس إذ ودعته والتقى
كأنما جسمي على جسمه
يارب ما أطيب ضمي له
إلي لولا أنه راحل !

وقد ألم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات :

أفي كل يوم لفظة ثم عبارة
وركب على الأكوار يثني رقابهم
فمن واجد قد ألزم القلب كفه
ومستعبر قد اتبع الدمع زفرة
قضى ما قضى من أنة الشوق وانثنى
ولم نغن حتى زایل البعد يميننا
كأن الليالي كن ألين حلقة
ايا وقفة التوديع هل فيك راجع
وهل مطعمي ذاك الغزال بلفنة
وإن ثورالركب العجبال واوجفوا^(٢)

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الاحباب ، ولكن فيها تصويراً
لانتهاج الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفظة وإشارة البنان ، وليست هذه
المتعة بالشيء القليل !

(١) لم نغن : لم نغم . والأزلم المتغطرف هو الدهر . (٢) أوجفوا : أسرعوا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع ، واليوم نذكر
من شعرهم في الدمع بعد الفراق . فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري
ابلقاهم وهو حي ، ام ينتظرهم في عالم البقاء :

ألم يأن للسفر الذين تحملوا إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم املك سوابق غبرة نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى لكل اناس جدبة وربيع

ويذكر صاحب « مواسم الادب » ان المأمون كان يعجب بهذه الابيات ،
وكذلك كان المؤلفون « يسجلون » إعجاب الملوك بما يقول الشعراء ، كأن الشعر
« نقود » لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك !! على ان من العدل ان
نذكر بهذه المناسبة ان إقبال المأمون على الشعر الجيسد ، وتشجيعه للشعراء
المجيدين ، كان مما رفع الادب ونهض بالادباء . وهناك ظاهرة اخرى لا عجب
المأمون بهذه القطعة الوجدانية : هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء ،
وان اسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا ان نقول : ان في عجز العلم والملك
عن قتل الحب في صدور الملك والعلماء لدليلا على ان نعم الوجود تتلاشى امام
هذه النعمة الساحرة ، القاهرة : نعمة الجمال !! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ،
يقول الطغراني :

اني لأذكركم وقد بلغ الظما مني فأشمرق بالزلال البارد
واقول ليت احبتي عاينتهم قبل الممات ولو بيوم واحد
وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك سحرين كقوله :
الدمع مذ بعد الحليط قريب والشوق يدعو والزفير يجيب
ان لم تكن كبدي غداة وداعكم ذابت فأعلم انها ستذوب

دائماً طلبت له الأمانة فلم يكن
 اما اقمتم فان دمعي غالب لمواذلي وتجلدي مغلوب
 ومن الشعراء من ينفذ دمعه ، فيوصي بالبكاء عنه ، كما قال الشريف :

ايها الراح المقتد تحمل حاجة للتميم المشتاق
 إقر عني السلام اهل المصلى فبلاغ السلام بعض التلاقي
 واذا مامررت بالخيف فاشهد ان قلبي اليه بالاشواق
 واذا ما سئلت عني فقل نض وهوى ما اظنه اليوم باق
 ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومنى عند بعض تلك الحداق
 وابك عني فطالما كنت من قبة ل اعير الدموع للعشاق
 وتذكرنا هذه الابيات بقول عبد الرحمن الداخل :

ايها الراكب الميمم ارضي إقر من بعضي السلام لبعضي
 ان جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكه بأرض
 قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
 قد قضى الله بيننا بافتراق فمسي باجتاعنا سوف يقضي
 ومن الشعراء من يبكي في القرب والبعد ، كما قال بعض الظرفاء :

وما في الارض اشقى من محب وان وجد الهوى حلو المذاق
 تراه باكياً في كل حال مخافة فرقة او لاشتياق
 فيبكي ان نأوا شوقاً اليهم ويبكي ان دنوا خوف الفراق
 فتسخن عينه عند التناهي وتسخن عينه عند التلاقي

وليس لنا الا ان نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الاخطل لعبد الملك بن
 مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر : واؤها مر ، وآخرها سكر ؟ فقال
 صدقت يا امير المؤمنين ! ولكن بين السكر والمرارة لحظة دونها ملكك الطويل
 العريض !

وبين دموع التلاق ، ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الابرار في جنات
 النعيم !!

ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق . كقول الشريف :
 هل عهدنا بعد التفرق راجع او غصننا بعد التسلب مورك
 شوق اقام وانت غير مقيمة والشوق بالكلف المعنى اعلق
 ما كنت احظى في الدنوف كيف بي واليوم نحن مغرب ومشرق
 وفي البيت الاخير حسرة تذيب لغائف القلوب .

وقد اجاد الارجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال :
 رحلوا : امام الركب نشر عبيهم ووراءهم نفس المشوق الصادي
 فكأن هذا من وراء ركابهم حاد لها وكأن ذلك هادي
 لله موقف ساعة يوم التوى بنى واقبار الحدوج بواد
 لما تبعته وللمشييع غاية اظعانهم وقد امتلكن قيادي
 اتبعتهم عيني وقلبي واقفاً فوق الثنية والمطي غواد
 كيف السبيل الى التلاقي بعدما ضرب الغيور عليه بالاسداد
 والحي قد ركزوا الرماح بمنزل فيه الظباء ربائب الآساد
 وعد المنى بهم فقلت لصاحبي كم دون ذلك من عدى وعواد
 عهدي بهم وهم بوجرة جيرة سقيت عهدهم بصوب عباد
 فاليوم من نفس النسيم اذا سرى نبغي شفاء علائل الاكباد
 ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها ايدي الفراق حين نفرت
 عنها الظباء ، كسبط ابن اسبايذي حين يقول :

يا موقفاً بالبان لم تثمر لنا غير الصبابة والاسى شجراته
 هل نفرت لا نفرت غزلانه او صوحت لا صوحت باناته
 عهدي به يلوي الديون قضاته وتصيد ألباب الرجال مهاته
 فالיום لاجيرانه جيرانه قدماً ولا فتياته فتياته
 يا حادي الاطعان في آثاركم قلب تقطعه جوى حسراته
 ولقد يرى ثبت الحصاة فماله امست تذوب على البعاد حصاته (١)

(١) الحصاة : القلب

شكوى الصبابة

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فاذا هم مختلفون : فمنهم من يشكو الى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقليب القلوب .

ألا ان لداود الحديد بقدرة مليك على تيسير قلبك قادر وهؤلاء اصدق الناس حبا واحسنهم ايمانا . وسيدهم ابو صخر الهزلي حين يقول :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم
فانه جعل الهوى قدراً ، وجعل الامر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب ، وادع الذل فيه . ولم اجد في هذا المعنى اوجع من قول قيس ابن زريح :

الى الله اشكو فقد لبني كما شكا الى الله بعد الوالدين يتم
يتيم جفاه الاقربون قدمه غزير وعهد الوالدين قديم
واذا كان محالا ان يجد المرء بعد ابويه من يعوله ، ويحذب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديراً ان يفوز به لو عاش ابواه ، فكذلك لا يجد قيس من بين النساء من من تهره برأبني . وهذا وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان نارا وحرقه . وقال ابن المعتز :

الى الله اشكو الشوق لا ان لقيتها يقل ولا ان بنت يخلفه الدهر
مقيم على الاحشاء قد قطعت به فساعته يوم وليسته دهر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود وجهه . وانما يشكو الحب قسوة الهجر ، ومرارة الصدود : وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه :

اشكو الى الله من نارين واحدة في وجنتيه واخرى منه في كبدي
ومن سقامين سقم قد احل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي
وهذا شعر منتقد . فانه إذا صح ان يشكو الحب إلى الله سقمه ووجدته ،
أملا في الراحة من بلاء الحب ، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه
والنار في خديه ؟ وقد أجاد أو قارب في قوله :

ومن نحو مين دمعي حين أذكره يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني ووده ويراہ الناس طوع يدي
فانه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم . وهو نوع من الوله ، وصنف
من الصباية . تقربه عين الحب . وتطيب به نفس المشوق . كقول ابن المعتز :

أياسدرة الوادي على المشرع العذب سقاك حياحي الثرى ميت الجذب
كذبت الهوى إن لم أقف اشتكي الهوى اليك وإن طال الطريق على صبحي
اصانع اطراف الدموع ومقلتي موقرة بالدمع غرباً على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيئا بالشباب فان تطر شياطين لذاقي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق . وهو أصل هذا الباب . ومنه هذا
البيت السائر :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع
ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير :

أين من يرحمني أشكو له إنما الشكوى إلى من يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس لم يكن من مقلتيها يسلم
أيها السائل عن وجدي بها إنه اعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى أنت يا رب بجالي أعلم
طال ما أنقاه من نار الجوى وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن فاعلموا الي فيهم علم

سطرت قبلي احاديث الهوى وبسك من حديثي تحتم
وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح . ولعلك لا تجد
أظرف من قوله :

أين من يرحمني أشكو له انما الشكوى إلى من يرحم
فانه خير ما قيل في معناه ... ومن المفرمين من يشكو إلى حبيبه وهو
أوجب لرحمته ، وأدعى إلى إنصافه . ومنه قول الطغرائي :

لعمرك ما يرجي شفائي والهوى له بين جسمي والعظام دبيب
اجلك ان اشكو اليك وأنطوي على كمدي ان الهوى لعجيب
وآمل براء من هوى خامر الحشا وكيف بداء لا يراه طبيب
نصيبك من قلبي كما قد عهده وما لي بحمد الله منك نصيب
وما ادعى الا اكتفاء بنظرة اليك ودعوى العاشقين ضروب
وما بحث بالسر الذي كان يبيننا ولكننا لحظ الحب مريب

وقوله « نصيبك من قلبي كما قد عهده » مأخوذ من قول ابن الأحنف :

اليك اشكو رب ما حل بي من صد هذا التائه المعجب
صب بعصيانى ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب
ان قال لم يفعل وان سيل لم يبذل وان عوتب لم يعتب

وقوله « وما أدعى الا اكتفاء بنظرة » مأخوذ من قول الشريف :

عشقت وما بي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

وما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه - في الشكوى الى المحبوب - قول
بعض الاعراب :

شكوت فقلت كل هذا تهرماً بحبي أراح الله قلبك من حيي
فلما كتمت الحب قالت لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد ظالماً رضاها فتعتد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بعدي وتنفر من قرني
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربّي.

وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون الى مثله قليل .

وقد اجاد في هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك ابراهيم حين قال :

كم تحت اذيال الظلام متم	دامي الفؤاد وليله لا يعلم
ما انت في دنياك أول عاشق	راميه لا يحزنو ولا يترحم
أهرمتني يا ليل في شرخ الصبا	كم فيك ساعات تشيب وترحم
لا انت تقصر لي ولا انا مقصر	اتعبتني وتعبت ، هل من يحكم
له موقفنا وقد ناجيتها	بعظيم ما يخفي الفؤاد ويحكم
قالت من الشاكي تسائل سرها	عني ومن هذا الذي يتظلم
فأجبتها وعجن كيف تجاهلت	هو ذلك المتوجع المتالم
انا من عرفت ومن جهلت ومن له	لولا عيونك حجة لا تفحم
اسلمت نفسي للهوى واظنها	مما يحشمها الهوى لا تسلم
وأتيت يحدوني الرجاء ومن اتى	متحرماً بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا	تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى	يبقي عليه ولا الصباة ترحم
لو تنظرين اليه في جوف الدجى	متعللاً من هول ما يتجشم
يمشي الى كنف الفراش محاذراً	وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمي الفراش بناظريه وينثني	جزعاً ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكانه واليأس ينسف نفسه	للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به في كل جنب مدية	وانساب فيه بكل ركن ارقم
فكانه في هوله وسعيه	واد قد اطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابده	من ناظريك وما كتمتك اعظم
قالت اهذا انت ويحك فاتد	حق م تنجد في الغرام وتهم
انا سمعنا عنك ما قد راينا	وأطال فيك وفي هواك اللوم
اصغت الى قول الوشاة فأسرفت	في هجرها وجنت علي واجرموا
حتى اذ ايسس الطبيب وجاءها	انى تلفت تندمت وتندموا

وأنت تعود مريضها لا بل اتت مني تشيع راحلا لو تعلم
وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد طال عليه الليل ،
وهجر جفنيه المنام . وهي غاية في حسن القصص ، وسحر البيان .
ولنذكر الشكوى الى ساقى الراح في قول ابن المعتز :

ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت في غرقه وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته جذب الزق اليه واتكا
وسقاني اربعاً في اربع

ما لعيني عشيت بالنظر انكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت فاسمع خبري عشيت عيناى من طول البكا
وبكى بعضى على بعضى معي

غصن بان مال من حيث التوى مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الاحشاء موهون القوى كلما فكر في البين بكى
ويحه يبكي لما لم يقع ا

ليس لي صبر ولا لي جلد يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما اجد مثل حالي حقه ان يشتكا
كمد اليأس وذل الطمع

كبد حرى ودمع يكف اصرف الدمع فلا ينصرف
ايها المعرض عما اصف قد نسا جى بقلبي وزكا
لا تقل في الحب اني مدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة . تهتم بثلها النفس الشجية ، من حين الى
حين ؟

وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله :

ظبي يصيد ولا يصاد محاذر نبل الهوى وحبال اليناس
غر شمس ان احس بريية اعجب يجامع غرة وشاس

يسبي القلوب بمقلة مكحولة بفتور غنح لا فتور نماس
يا للرجال ألا معين لأيد صب الفؤاد على ضعيف قاس^(١)
ايضمني خنث الشائل لو نضا عنه غلالته حساه الحاسي ؟
ومن العجائب ان تحل ظلامه بفتى اناس من فتاة اناس

ومن المعذبين من يبتش شكواه من دهره واخوانه الى صديق^١ اقصته في بره
الليالي . ومن شعراء العصر من قارب الإجادة في هذا المعنى ، كصاحب البدائع
حين يقول (٢) :

انت الذي علمتني يا سيدي بر الصديق
وتركتني في فتية ما فيهم بر رفيق
لم ألق بعدك منهم الا الجفاء او العقوق
حتى كأنني لم ابت منهم على عهد وثيق
وكانهم لم يبصروا في خلقي الحر الصدوق
فنسوا هواي ولم يقق من ودم قلبي المشوق
ونسوا طريف حديثنا عند الصبوح والغبوق
ليت الهوى ما قادي يوماً الى ذاك الطريق
أوليتني لم الخدع جهلاً بهاتيك البروق
بل ليتني بعد الذي عانيت من صبحي افيق

مولاي لو ابصرتني لفزعت من دمعي الطليق
وشجاك جسمي ناحلاً وكأنه الطيف الطروق
أشكو اليك وانما يشكو المضم الى الشفيق
فارحم فديتك مهجة أودى بها الحزن العميق

(١) ايد : قري . من الأند يسكون الباء وهو القوة

(٢) أرسلت هذه القصيدة للصديق العزيز محمد محمود حسين

حزن يتقطع في الحشا فكأنه غدر الصديق

•

يا ويح قلبي لم يزل
وتقوده الذكرى الى
أيام نمرح في الصبا
أيام نسقى في الهوى
تلك الليالي لم تدع
كلا ولا خلت لنا
يهفو به الروح الحسوق
عهد الهوى الغض الرقيق
في ذلك العيش الانيق
والود كأساً من رحيق
من بعدها حسناً يروق
الا الزفير او الشهيق



عند منازل الاحباب

كان ابو نواس يكره الشعر في بكاء الرسوم والاطلال ، وادباء هذا العصر
يعدون هذه النزعة توديعاً للقديم ، وترحيباً بالجديد ، وهذا حق ادا لوحظ ان
الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاء الديار ، وان لم يكونوا بنار الفراق من
المهرقين ! ولكن من المبعث في تحليل العواطف ان نجعل ما يجده المحبون عند
المرور بديار احبابهم المبعدين ، ومن الغين للآداب العربية ان تغفل ما قيل في
منازل الاحباب من الشعر الباكي الحزين ؟ وها نحن اولاء نبسط القول عن هذه
الوقفة الاليمة ، وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الفرائر ، وعفت
سررها من النساء الحرائر ، بعد ان كان ساكنوها امل الآمل ، وامنية المتمني !!
فمن ذلك قول بعض الاعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء - وكان ملعب
شبابه ، ومنتدى هواه ، وصورة أيامه الخوالي :

ومستنجد (بالحزن) دمعاً كأنه	على الحد مما ليس يرقاً حائر
اذا ديمة منه استقلت تهلت	اوائل اخرى ما هن اواخر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه	لما انهل من عينيه في الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة	دمى الشوق في انسانها فها هو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح :

نظرت كأنني من وراء زجاجة الى الدار من ماء الصبابة انظر
فميناي طوراً تفرقان من البكا فأعشى وطوراً يحسران فأبصر
وبما يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحثري :

وقفنا فحيينا لاهلك باللوى ربوع ديار دارسات المعالم
ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت عزها مشوقات القلوب الهوام
خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت تلوم وتلحى كل لاح ولائم

لقد حكم البسين المشتت بالبلى عليك وصرف الدهر اجورحاً كم
لعل الليالي يكتسين بشاشة فيجمعن من شمل الهوى المتقادم

ونود لو تأمل القارئ ما في هذه الابيات من الترتيب والتنسيق : فقد
وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر والنعيم
الماضي ، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالا ، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء ،
فاندفع يبكي وينتحب ، ثم اغرب في البكاء والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ،
وخضع لاثموه ! ! ثم توجه للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي ! ! ثم
تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس ، فاجتمع الشمل بعد الفراق ! ! وقال ابو
فراس :

علي لربع العامرية وقفة ليملي علي الشوق والدمع كاتب
فلا وابي العشاق ما انا عاشق ادا هي لم تلعب بصبري الملاعب
ومن مذهبي حب الديار واهلها وللناس فيما يعيشون مذاهب

ولا يفهم احد كيف يكون حب الديار واهلها مذهباً لأبي فراس ، مع ان
ابياته هذه ليست شيئاً في جانب ما قيل في منازل الاحباب ، ويكفي ان
نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمة :

سأسري الى الماء الذي شربت به سليمة وان مل السري كل واحد
وألصق احشائي ببرد ترابه وان كان مخلوطاً بسم الاسود

ويذكرني هذا بقول بعض الاعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنده
وجوه الكواعب :

اقرأ على الوشل السلام وقل له كل المشارب مذ هجرت دميم
سقياً لطللك بالعشي وبالضحى ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت املك منع مائك لم يدق ما في قلاتك ما حييت لثم^(١)
وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله :

توافر صبحي يوم ذي الأثل زفرة تذوب قلوب من لطاها واضلع

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخرة .

منازل لم تسلم عليهن مقالة ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشتة ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية :

وقفت على تلك الديار ووحشها دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف قليلا ولجا بعد في الهلانات

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار ، فحسب اطلالها من البلى ، ورسومها
من العفاء ، ان تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب إلا قليلا ، والادباء ينكرون
أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعما ، ويعجبون بقول طريح
ابن اجماعيل الثقفي :

تستخير الدمن القفار ولم تكن لترد اخباراً على مستخير
فظلمت تحكم بين قلب عارف مغنى أحبه وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الحالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأبي نواس
حين يقول :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما اقوت وحسن رسوم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الاقواء ثوب نعيم
وكقول الاخطل :

لأسماء محتل بناظرة البشر قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه وكم من ليال للديار وكم شهر

وكقول ابن احرر العقيلي :

تراها على طول القواء جديدة وعهد المغاني بالحلول قديم

والمعروف في هذا المعنى ان الديار تجد مثل ما يجد المتم المحزون ، كقول
محمد بن وهب :

طللان طال عليها الامد درسا فلا علم ولا قصد
لبسا البلى فكأنما وجدا بعد الاحبة مثل ما اجد

وكقول مالك ابن اسماء الفزاري :

بيناهم سكن لجارهم ذكرروا الفراق فأصبحوا سفرا
فظللت ذا وله يعاتبني من لا يرى مثلي له أمرا
بككت الديار لفقد ساكنها افعسند قلبي ابتغي الصبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي :

ولمسا وقفنا بالديار وعندنا مدامع نسديها لكم ونثيرها
شكونا اليها ما لقينا من الضنى فعرفنا كيف السقام دثورها
وقد درست إلا اماراة ذاكر تلوح له بعد التماذي سطورها
خليلي قد عم الاسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار إلا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها
لعمر الليالي ما حمدت قديمها فيوحشني ذهابها ومرورها
وقالوا عطاء الدهر يبلى جديده ومن لي بدنيا لا يزول سرورها

ونود لو تأمل القارئ ابداع ابن سنان في هذين البيتين :

خليلي قد عم الاسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلى ودورها
فلا دار الا دمنة ورسومها ولا نفس إلا لوعة وزفيرها

وحسب العاشق من موجب الاسى ، وداعي الحزن ، ان يرى منازل احبابه
هامدات ، باليات !

تعفوا المنازل ان نأوا عنها وتغير البلاد
والحي اولى بالبلى شوقا اذا بلى الجماد

وهل تأملت كيف شكا الى الديار ما لقي من الضنى ، وكيف عرف ما به
من السقم لما تبين دثورها ، وتعرف عفاءها ! ويا ليت شعري هل شكت اليه ما
تجدد اليه من بعد سكانها ، وبين ملاكها ؟ اما والهوى انها لتشكو في صمتها
الرهيب : إذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكي بغير دمع !

كفى حزنا للهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا
ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الادب ، في بكاء الرسوم الهوامد ،

والاطلال الدوارس ، مع الافصاح عن الاسى والبث ، والشجى والحزن ، قول
ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها المقي المحب بعدهم من الضنى والنحول :

وقفت اداري الوجد خوف مدامع تبيح من السر المنع ما احمي
أغالب بالشك اليقين صباية وأدفع من صدر الحقيقة بالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد : فقد عرف الديار
بقلمه ، لما ضمنت منه الضلوع لاهلها النازحين ، وانكرها بطرفه ، لما لقيت من
الدثور والعفاء ، فهو يريد ان يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه
غلب على امره فقال :

فلما ابى إلا البكاء لي الاسى بكيت فما ابقيت للرسم من رسم
كأني بأجزاع النقيبة مسلم إلى نائر لا يعرف الصفح عن جرم
يرحمه الله ! فهل رأى نائراً أظلم من الوجد ، وحاكماً اجور من الصباية ! ثم
اخذ يتقارن بين بليته وبلية الديار ، فقال :

لقد وسدت وجدي الديار بأهلها ولو لم تجدو بجدي لما سقمت سقمي
عليهن وسم للفراق وانما علي له ما ليس للثار من وسم

وهذا من الابداع في وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد اهله إلا
باكياً حزيناً ؟ اوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي ،
عساه يعرف شيئاً عن سكاته الراحلين ، وملاكه الغائبين ؟ ان السكان للمنازل
كالارواح للاجسام ، فاذا ارتحلوا آن حمامها ، وحان دثورها ، وحل دمارها !
وقد رأى الشاعر بعد ذلك ان البين جائر في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالي ،
فقال :

وكم قسم البين الضنى بين منزل وبينني ولكن الهوى جائر القسم
منازل ادارس شجاني نحوها فهلا شجاها ناكل القلب والحسم
وهذه استغاثة بالطلل البالي ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من اغزر الناس دمعاً عند مفاني الاحباب ، فمن ذلك
قوله :

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به
لو كنت ناسي عهد من تقادمه
أيام يفتك فيها غير مرتقب
لا أرسل اللحظ إلا كأن موقعه
ما أطيب العيش لو اني وفدت به
وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله في اللوعة قوله من كلمة
ثانية :

أجذك ما تنفك بالغور ناشداً
واني لتصميني سهام ادكاركم
تمادى غرام ليس بحري الى مدى
وما انس لا انس الحمى واهلة
زماناً إخال الجهل فيه من النهى
غنين وما نولن نيلا سوى الجوى
خليلي ما احلى الحياة لو انها
لقد حالت الايام عن حال عهدها
فؤاداً بنجد ؟ يا لقلبك من نجد ا
وان كان رامي الشوق مني على بعد
وفرط سقام لا يقيم على حد
تضل ومن حق الالهة ان تهدي
وحباً اعد الغي فيه من الرشد
وبن وما زودن ذاداً سوى الوجد
لطاعها لم تخلط الصاب بالشهد
ومن لي بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة :

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم
تمنيتهم بالرقمتين ودارهم
سقى الوابل الربيعي حائل ربيعهم
وجر عليه ذيله كل خاطر
وما كنت لولا ان دمعي من دم
امات الهوى مني فؤادي واحياه
بوادي الغضا يا بعد ما أتمناه
وراوحه ما شاء روح وغاداه
إذا مشى في عاقل الترب حلاه
لأجل مناً للسحاب بسقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الارجاني :

وقفت بأطلال الديار مسلماً
فأبرق عذالي ملاماً وارعدوا
وعهدي وملء الواديين قباب
وامطرت اجفاني فتم سحب

به غنيت ارض الحمى عن مصبح يقول سقى دار الرباب رباب
وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الاخيلة الجوفاء ! وفي هذا المعنى
يقول ابن التعاويذي :

سقى دار الحبيب وإن تناءت ملث مثل اجفاني هطول
ولا برحت تسحب للغواصي وطروراً للصبا فيها ذبول
فجفني والغمام لها غدير وقلبي والنسيم بها عليل
وعنفني على العبرات صحي عشية قوض الحي الحلول
وقالوا استبق للاحباب دمعا فقد شرقت بأدمعك الطلول
معاذ الحب ان ألفي حمولا وقد سارت بمن اهوى الجلود
وعاران تزم ليوم بين جماهم ولي صبر جميل

ومن الشعراء من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب
التي قضاها برأى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع . وقد نوه بذلك
صاحب زهر الآداب فذكر ان ابن الرومي جاء إلى علي بن عبد الكريم النصيبي
وانشده هذه القطعة البديعة :

ولي وطن آليت ان لا ابيعه وان لا ارى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرح الشباب منعا بصحبة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحب اوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا اوطانهم ذكرت لهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

ثم قال : انصفني وقل الحق . ايها احسن ؟ قولي في الوطن ام قول الاعرابي .

احب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى لا يصبوب سحابها
بلاد بها نيطت علي تمائي واول ارض مس جسمي ترابها

فقال له : بل قولك احسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبه . واذت ذكرت
العلة التي اوجبت ذلك !! وقد يشعر القاريء بالحاجة إلى معرفة المخاطب في
قول ابن الرومي :

عمرت به شرح الشباب منعما بصحبة قوم اصبحوا في ظلالها
 وخلاصة الحديث ان القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي
 جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من
 التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها ، فمما فيها من التحريض
 قوله :

واني وان اضحي مدلا بماله لا امل ان اضحي مدلا بمالكها
 فان لم تصبني من يمينك نعمة فلا تخطئني نعمة من شمالها
 فكم لقي العافون بدءا وعودة نوالك والمعادون غمر نكالها

وقال ابن الرومي من كلمة اخرى يتشوق إلى بغداد :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
 فإذا تثلل في الضمير رأيته وعليه اغصان الشباب تמיד

والادباء يرون ان مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء على
 اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومي من كلمة
 ثانية :

لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكيها بدم
 عيب الشبيبة غول سكرتها ومدار ما فيها من النعم
 لسنا نراها حق رؤيتها إلا اوان الشيب والهزم
 كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الارض بالظلم
 ولرب شيء لا يسر به وجدانه إلا مع العدم

والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون انه تبسع في وصف الوطن
 بشار بن برد حين يقول :

متى تعرف الدار التي بان اهلها بسعدى فان الجهد منك قريب
 تذكرك الاهواء إذ أنت يافع لديها فمغناتها اليك حبيب

ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاء لما انقطع
 بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل رزء ، وبعض الوقار

بلاء ، ولكن اكثر الناس لا يفقهون !
ولقد سافر العباس بن الاحنف مع هرون الرشيد إلى خراسان فاستدعاه ليلة
لينشده شيئاً من الشعر ، فأنشده هذه الابيات :

قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت ارجوه وآمله اما الذي كنت اخشاه فقد كانا
ما اقدر الله ان يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له : لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه ، نعم يا امير المؤمنين ! فأذن له
بالرجوع ... وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربني أهلي
بلادها نيطت علي ثنائي وقطعن عني حين ادر كنني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي فاقتري علي الرزق واجمع بها شعلي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان ! وما أدري أكان شوق
ابن ميادة إلى بلاده رفقا بالأهل والعشيرة ، أم كان برأى من فيها من فائنات
الخدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول :
ومن بينات الحب ان كان أهلها احب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل :

سقى الله اليمامة من بلاد نوافجها كأرواح الغواني^(١)
وجو أزاهر للريح فيه نسيم لا يروع التراب واني
به سقت الشباب إلى مشيب يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الاعراب في توديع نجد ، وما لقي بها من نضارة العيش ، وطيب
الحياة :

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شيم عرار نجد فما بعد العشي من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار

(١) النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.

وأهلك إذ يحل الحيّ نجداً وانت على زمانك غير زار^(١)
 شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لمن ولا سرار
 وهذا حنين يذلل له عصي الدمع . ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت
 ملعب صباه :

يا دار جادك وابل وسقاك	لا مثل منزلة الدويرة منزل
لم يمح من قلبي الهوى ومحاك	بؤساً لدمر غيرتك صروفه
ذم المنازل كلهن سواك	لم يحل للعنين بعدك منظر
ممساك بالآصال أم معسداك	أي المعاهد منك أندب طيبه
أم أرضك الميثاء أم رياك	أم برد ظلك ذي الغصون ودي الجنى
أوفت فار المسك فوق ثراك	وكانما سمعت بحامر عنبر
وحكان ماء الورد دمع نداك	وكانما حصباء أرضك جوهر
نشرت ثياب الوشى فوق رباك	وكانما ايدي الربيع ضحية
ماء الغدير جرت عليه صباك	وكان درعاً مفرغاً من فضة

وبما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف . وقد كان الشعراء
 يتخذون الاديار موطناً لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير منهم حنين موجه
 إلى سكانها من ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث
 ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التنغي بمنازل الشراب . فمن ذلك قول محمد بن
 عاصم المصري في دير القصير ، وقد كان ملعباً للشعراء المصريين :

ان دير القصير هاج اذكاري	لهو ايامنا الحسان القصار
وزماناً مضى حميداً سريفاً	وشباباً مثل الرداء المعار
ولو ان الديار تشكو اشتياقاً	لشكت جفوتي وبعد مزاري
ولكادت تسير نحوي لما قد	كنت فيها سيرت من أشعاري
وكأنني اذ زرتة بعد هجر	لم يكن من منازل ودياري

(١) غير زار : غير عاتب

اذ صعودي على الجياد اليه والنحداري في المعتقات الجواري
بصقور الى السماء صواد وكلاب على الوحوش ضواري
منزلا لست محصيا ما لقلبي ولنفسي فيه من الاوطار
كم شربنا على التصاوير فيه بصغار بحثوة وكبار
صورة في مصور فيه ظلت فتنه للقلوب والابصار
أطربتنا بغير شدة فأغنت عن سماع العيدان والمزمار
لا وحسن العينين والشفة الله ياء منها وحدها الجللانار
لا تخلفت عن مرادي دهرأ هي منه ولو نأى بي مزارى

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم :

سلام على دير القصير وسفحه فجئات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مأرب وكن مواخيري ومنتزهاتي
إذا جئتها كان الجياد مراكي ومنصرفي في السفن منحدرات

ومن الاديار التي خلدها الشعراء « دير قنّا » بالقرب من بغداد ، وقد أبدع
في وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير
ذكره في قول ابن جهور :

يا منزل اللهو بدير قنّا قلبي الى تلك الربى قدحنا
سقياً لأيامك لما كنا نمتاز منك لذة وحسنا
أيام لا أنعم عيشاً منا إذا انتشيننا وصعونا عدنا
إذا فنى دن بزلنا دنا حتى يظن اننا جننا
ومسعد في كل ما أردنا يحكي لنا الفصن الرطيب اللدنا
احسن خلق الله اذ تحنا وجس زير عوده وغنا
بالله يا قسيس يا باقنا^(١) متى رأيت الرشأ الاغنا
متى رأيت فتنتي تجنى آه اذا ما ماس او تشنى

أسأت إذا أحسنت فينا الظنا !

(١) قد يكون اصل الكلمة يا باقنا ثم حذفت الهمزة تخفيفاً والمراد به ساكن دير قنّا

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغني بقطر آخر كان ملعب
هواه ، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق :

لما الله العراق وساكنيه	فما للحرّ بينهم قرار
وجاد الموصل المبيض غيث	يحود وللبروق به انسفار
كما انهلّت مدامع مستهام	تلهب منه في الاحشاء نار
ففي ايامه حسن التصابي	وفي أفيائه خلج العذار
ليالي كان لي في كل يوم	إلا الحانات حج واعثار
فمن ذكر القيامة بي صدور	وعن ساح المساجد بي نثار
ولي خدان هما المعالي	وشأنها السكينة والوقار
وساق تضحك الدنيا اليه	إذا ضحكت بكفيه العقار
يطوف بها وقد حملت حجاباً	كما حمل السقيط الجلنار ^(١)
كأن الشرب ينتهبون ناراً	لها هلب وليس لها شرار
رأى الدهر اجتماع الشمل منا	فبدده وللدهر الخيار

إلى هنا وقف القارئ على نماذج في بكاء الديار الخالية ، والحنين إلى الوطن
النائي ، والشوق إلى موطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل
القريب المأهول ، حين يصبح أهله كالكواكب قريبة الضوء ، بعيدة المنال !
وحين يصبح تمنع الحبيب أقصى من النوى ، وأمر من الفراق . وأبدع الشعر في
ذلك قول راشد بن إسحق الكوفي :

ومستوحش لم يس في دار غربة	ولكنه بمن يحب غريب
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره	فشطت نواه والمزار قريب
سلام على الدار التي لا أزورها	وإن حلها شخص إلي حبيب
وإن حجبت عن ناظري ستورها	هوى تحسن الدنيا به وتطيب
هوى تضحك اللذات عند حضوره	ويسخن طرف اللهو حين يغيب

(١) الجلنار : زهر الرمان.

تثنى به الاعطاف حتى كأنه
ألم تر صمقي حين يجري حديثه
رضيت بسعي الدهر بيني وبينه
أحاذر إن واصلته ان ينالني
أرى دون من أهوى عيوناً تريبني
أداري جليسي بالتجلد في الهوى
وأخبر عنه بالذي لا احبه
خافة ان تغرى بنا ألسن العدا
كأن بحال الطرف في كل ناظر
أرى خطرات الشوق يسكين ذا الهوى
وكم قد أذل الحب من متمنع
وإن خضوع النفس في طلب الهوى
إذا اهتز من تحت الشباب قضيب
وقد كنت ادعى باسمه فأجيب
وإن لم يكن للعين فيه نصيب
ولما سهم للفراق مصيب
ولا شك اني عندهن مريب
ولى حين أخالو زفرة ونحيب
فيضحك سني والفؤاد كئيب
فيطمع فينا كاشح فيعيب
على حركات العاشقين رقيب
ويصبين عقل المرء وهو لبيب
فأضحى وثوب العز منه سلب
لأمر إذا فكرت فيه عجيب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراة القيسي انه كان في مجلس الغتي
مع عبد الصمد بن المعذل ، وانهم تذاكروا ما ابداع المولدون من الشعر الرقيق
فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس ؟ فقال أبو شراة أشعر منك الذي
يقول :

ومستوحش لم يس في دار غربة ولكن من يحب غريب

إلى آخر القصيدة . وان عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف ! وعندي
ان صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفاً منظماً يصح ان يكون
« صورة شعرية » بل نراه جمع بين اشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل : ألا
تراه يذكر في اول القصيدة انه قريب ، ولكنه في قربه غريب ، لأن إنساناً
غيره يتمتع بذلك الحبيب ؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر انه يحاذر الوصل طائفاً
لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس
المعذبة ، لأن الذي يتصور ان محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه
يترك مواصلته اتقاءً لعيون الوشاة !

ينقص هذه القصيدة اذن ما أسميه « الصورة الشعرية » ولا يمنع هذا ان تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الابيات المختارة . ولئن صح ان العتيبي صادق على ان صاحبها أشعر الناس فإننا نشك في أذواق الادباء الاقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية . واحب ان يفهم بعض الناس معنى « الحاسة الفنية » فان كثيراً من أدعياء الادب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلاً عن ان يفقهوا ما تنثر على بساط الدهر من ثمرات العقول !

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق ! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الادراك ! ومحال ان يجدوا طمعاً لقول الشاعر :

أسمع في قلبي دبيب المنى وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر . وأين تكون القلوب ! من اجل هذا اشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في اختياره على الاذواق العامة لعملاء البيان ، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا انهم على شيء ، وان الادب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق ببیت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة له بالمرصاد ..
فمن ذلك قول السري الرفاء :

مررت بالعقيق فكم عقيق ترقق في محاجرنا فذا بيا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه سؤالا والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شمس إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباء التصابي ولم أحل من السلوان عابا
ولوبعدت قبابك قاب قوس من الواشين حييت القبابا

إلى هنا عرف القارئ ألوان المواطنف عند منازل الاحباب ، فقد رأى نقات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائي ، وحنينهم إلى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفراهم عند المنزل يدنو

وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الأطباء ! ويجمع شتيت هذه المعاني قول بعض
الاعراب :

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع اذا كان من تهواه ليس بندي عهد
وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء الشعراء
في أفنان الجمال .



وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتان : فهو يخشى ان تفضحه الدموع ! وأشهر الشعراء في اخفاء الحب العباس بن الاحنف ، وسننسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتان . ونكتفي الآن بشعره عن قهره بالدموع : وقد رأيت يتوجع حيناً من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول :

هو لي اغص اذا ما بدت واملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع ع نطقن فبحن بما اضمر
أمني تخاف انتشار الحديث وحظي في صونه اوفر
ولو لم يكن في بقايا عليك نظرت لنفسي كما تنظر

ويغضب حيناً على دمع عينيه فيقول :

لا جزى الله دمع عيني خيراً وجزى الله كل خير لساني
ثم دمعي فليس يكتّم شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب اخفاء طي فاستدلوا عليه بالعنوان
ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة ، فيقول :

قلبي الى ما ضرني داعي يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا كان عدوي بين أضلاعي
ومن الشعراء من يئأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ، كما يقول البحاري :

علاقة حب كنت اكنم بثها الى ان أذاعتها الدموع الهوامع
إذا العين راحت وهي عين على الجوى فليس بسر ما تسر الاضالع
وقد افصح الارجاني عن غاية ذلك : وهي نصر الوشاة ، بقوله :

ولي نفس إذ ما امتد شوقاً أطار القلب من حرق شظايا
 ودمع ينصر الواشين ظلماً ويظهر من سرائري الحبايا
 وأكرم من هؤلاء جميعاً الشريف الرضي حين يقول :
 أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ضنيناً بها إني إذن للثيم
 ولو بخلت عيني إذن لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم
 وقد نظر أبو نواس إلى قول بشا بن بُرد :
 يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار
 ثم حاكاه بهذه الأبيات في نيمة الدمع :
 قد تسترت بالسكون وبالاط راق جهدي فتمت العينان
 تركنتي الدموع نصب المشيرين وأحدوثة بكل مكان
 ما أرى خالدين للسر إلا قلت ما يخلوان إلا بشاني
 وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروع اصدق تشيل .
 ومن المحبين من تم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ، كالبحتري حين
 يقول :

إن الخطوب طوينني ونشرنني عبث الوليد بجانب القرطاس
 ما شبت من طول السنين وإنما طول الملامة فيك شيب راسي
 نمت على ما في ضميري أدمعي وتتابع الصعداء من أنفاسي
 ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيأ :
 طرحت يجمع نظرة ساء ركبتها وتبعث شراً للعيون المطارح
 فان سارت تلك الثلاث على منى هواي فيوم النفر لا شك فاضح
 بكيت ولام العاذلات فلم تفض على رقية العذل الدموع السوافح
 واحب ان يتأمل القارئ قوله « نظرت يجمع نظرة ساء كسبها » ليعرف
 كيف يسوء كسب العيون ، حين تجني على القلوب !

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب : اختياري هو ام اضطراري وهل الحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب « ديوان الصبابة » وأنا نقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري ، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون . قال ابن أبي حجلة في سداجة غريبة ما نصه :

« هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره . وأسفر كالصباح أمره . إذ للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبختر من الصفين . فقائل بأنه اضطراري . وقائل بأنه اختياري . ولكل من القولين وجه مليح . وقد رجح . ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع . ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف : العشاق معذورون على كل حال ، مغفور لهم في جميع الاقوال والأفعال . إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار . بل اعتراهم على جبر واضطرار . والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور . لا في المقضي عليه والمقدور . وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ ان الحامل كانت ترى يوسف عليه السلام فتضع حملها . فكيف تراها وضعتة ؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا . بل باضطرار ، وفقد اقتدار . وهذا بما لا يشك فيه ذولب . ولا يختلج خلافه في قلب . »

ثم نقل عن الفضيل بن عياض انه قال : لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها ان يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية . ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين اني رأيت امرأة فعمشتها . فقال

عمر : ذلك مما لا يملك . قال « وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب : ما لأحدكم يموت عشقاً في هوى امرأة يألّفها ؟ إنما ذلك ضعف نفس ، ورقة ، وخور ، تجذونه فيكم يا بني عذرة . فقال : أما والله لو رأيتم الحواجب الزج ، فوق النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفاج ، لاتخذتموها اللات والعزى ! » .

ثم قال بعد كلام طويل « إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك . فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يعرف نعله من عمامته » - العاقبة عندكم يا شيخ محمد ! - ثم قال « فهذا وأمثاله عشقه اضطراري ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس » .

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار ، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويحاً للنفس . أما الشعر في سلطان الحب فكثير . فمن الشعراء من يجعله سحراً كالطغرائي حين يقول :

إن لم يكن سحراً هواك فانه	والسحر قدأ من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب	حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرّقه	لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به	حيل الطبيب وطال يأمن العائد

ومنهم من يذكر انه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيّار :

وعنفني سعد على فرط ما ارى	فقلت اتعنيف ولم تك مسعدي
وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة	قتلت بها نفسي ولم أتمد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالتقضاء المحتوم لا مرد له كقول

المتنبي :

أيدري الربع أي دم أراقا	وأني قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبداً قلوب	تلاقى في جسوم ما تلاقى
فليت هوى الاحبة كان هدلا	فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله . كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي :

تضييق جفون العين عن عبراتها فتسفعها بعد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت حزازة حرّ في الجوانح والصدر
ألا ليقل من شاء ما شاء إنما يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر عليه فقد تجري الأمور على قدر
ويدخل في هذا الباب خلود الحب . فمن الشعراء من يجعل سببه خلود
المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي :

هل المسالة إلا منقضى وطر من متعة يطبى من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له فأين يرغب عنك السمع والبصر
وكما قال ابن عنيث :

خبروها بأنه ما تصدى لساو عنها ولو مات صدا
واسألوها في زورة من خيال إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تخجل الغزالة وجهاً وبياء وتفضح الغصن قدا

وكما قال أبو الاسود الدؤلي :

أبى القلب إلا أم عمرو وحبا عجوزاً أو من يحبيب عجوزاً يفند
كبرد الياني قد تقادم عهده ورقعته ماشئت في العين واليد
وهو رأي منتقد : فكل زهر إلى ذبول ، وكل جمر إلى خمود ، وكل حسن
إلى فناء ، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل .
ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول صردر :

ولقد عرضت على السلوجوانحي ال بحرى فلم يرهن دار مقام
كيف للسلو وليس يسلك مسمعي إلا حنين أو بكاء حمام
وكما قال ابن الزيات :

لم يزدني العذل إلا ولما ضربي أكثر مما نفعا
ذهبت بالقلب عين نظرت ليتها كانت وإياه معا
كل يوم لي منها آفة تركتني للهوى متبعا
وكما قال ابن التعاويذي :

يلوم عليك خال من غرامي رويدك أين سمعي والسلام
سلو مثل عطفك لا يرجى وصبر مثل وصلك لا يرام
فكيف أطيع عذالي وعندي هموم قد سهرت لها وناموا

وهذا أيضاً منتقد ، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت دواعيه !
ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الإحشاء . كما قال
الأبيوردي :

أرى كل حب غير حبك زائلا وكل فؤاد غير قلبي ساليا
إذا استخبروا شون عما أسره حمدت سلوي* أودمت التصابيا
أينهل قلب انت سر ضميره فلا كان يوماً عنك يا علو ساليا

وكما قال الغزي :

يا خليلي لو ملكت فؤادي جاز ان يملك الصواب عنائي
ظالمي من أراد إنصاف نفسي من هواها وآمري من نهائي
قد تورطت في تعسف شوقي حيث لا يعرف السلو مكاني

وكما قال الطغرائي :

خليلي هل من مسعد أو معالج فؤاد أ به داء من الحب ناكس
وهل ترجوان البرة بما أكنه فاني وبيت الله منه لايس
هوى لا يديل القرب منه ولا النوى ولا هو من طول التقدام دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تهتدي يوماً اليه الهواجس
إذا قلت هذا يوم اسلو تراجعمت عقابيل من اسقامه ووساوس

وأرجو ان لا يغفل القاري عما في هذا الشعر من فنون الجمال .

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتة للطبع ، ونزولا عقد حكم
الخلقة ، وهو اجمل المذاهب . ومنه قول التعاويذي :

من بات ذا قلب س ليم من جوى فأنا السليم (١)
مالي اذا رمت السلو تلوم القلب المليم (٢)

(١) السليم هو الملدغ (٢) المليم : الجاني

واذا كتمت الحب با ح بسره دمع نوم
عينى وقلبي في الهوى عون علي فمن ألوم
وأظهر منه قول المتنبي :

إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
وهبت السلو لمن لا مني وبت من الشوق في شاغل

ولا انكر ان من الشعراء من يرى غير ما ذهبت اليه في هذا الحديث .
ولكنني أرى الحب الصادق حليف الخلود . وقد اوضحت هذه المسألة في كتاب
« حب ابن ابي ربيعة وشعره » فليرجع اليه من شاء .



غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شبيب عبد الناصر بديروط « عما قالته الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء من ذلك » بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المسز كلين بالمسز ريب ، وما جنت يداها في سبيل هذا الحب الغريب !!

وأسف كثيراً أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة : فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار ! ويكفي ان الفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الادب جاءت فيه هذه العبارة « هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال ! » وإلى ذوقك بترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع ! ! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن « السحاق » كما جاء في القرآن النهي عن الزنا ! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول ! والمطلع على آداب الفرنسيين يجد في اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين ! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الاعاجيب . والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل ، فلا تصدق ما تسمع من ان الاسراف في المجانة بدعة ابتدعتها نساء برلين ! وعندي ان آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الانسانية ، وإغفالهم الركن الاساسي للإصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الامر بما لا يأتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن البلية ان يكون المصلحون منافقين !

ألم نصف الآداب الغربية بالاسراف في وصف النساء ؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأي من الحسنيات ، إذ كان الواجب على كل مصلح ان يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للغلمان !

اقرأوا هذا وتأملوه قبل ان تصدعوا رؤوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث
لا تعلمون !

وبعد ذلك ألفت نظر قراء « مدامع العشاق » إلى ان شعر النساء في الحب
قليل : فقد كان العرب يستنكرون ان تعشق المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب
خجلاً إذا قالت إحدى قريباته بيتاً واحداً في غلام جميل ، وقد ثار طويس
الغني لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت
ثابت في عبد الرحمن بن الحرث المخزومي :

يا خليلي نابني سهدي	لم تغم عيني ولم تكد
فشرابي ما اسينغ وما	أشتكي ما بي إلى احد
كيف تلحوني على رجل	آنس قلتذه كبدي
مثل ضوء البدر طلعت	ليس بالزميلة التكد
نظرت عيني فلانظرت	بعده عيني إلى احد

وحديث عليّة بنت المهدي معروف ، فقد حرم عليها اخوها هارون الرشيد
ان تشب بعلامها طل ، فكان من نتيجة ذلك ان تشببت بجاريستها زينب
وقالت فيها :

وجد الفؤاد بزينا وجداً شديداً متعبا

وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على ان عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس
في ذلك العهد . وليس معنى ذلك اننا نذكر ان زينب هنا كناية عن طل ،
ولكن معناه ان تشبيب عليّة بزينا كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم
نر في الكتب الادبية من أنكر على عليّة هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على
نساء الألمان ! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في « قميحة » جارية المتوكل !

سلافة كالقمر الباهر في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب اهيف ناشر^(١)

ولا مرية في ان العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ، ولهم

(١) الخشف بتثنية الخاء ولد الظبي

في ذلك عذر مقبول ، فان الغيرة لم توجد ، ولن توجد ، في مثل النفوس العربية ، والعرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك . ويأبون ان يسمعا حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه ، حتى ليقول شاعرهم :

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك واذني بك واثق ان لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة ان تقول شعراً في الرجل ، فانه يمز عليها من باب اولى ان تقول شعراً في اختها المرأة ، فضلاً عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية ، فان « هذه الشهوة » تعتبر فضولاً في باب الشهوات !

والحق اننا حرمانا خيراً كثيراً حين حرمانا شعر النساء ، انظر إلى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد :

إن من يملك رقي مالك رق الرقاب
لم يكن يا احسن العا لم هذا في حسابي
وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية :

كن لي شفيعاً اليكا ان خف ذاك عليك
واعفني من سؤالي سواك ما في يديكا
يا من اعز واهوى ما لي اهون لديكا

اننا نشتهي ان نتكلم المرأة ! إننا نحب ان نسمع حديثها العذب الجميل ! ولكنهم يزعمون ان كلام المرأة فسق ، وان حديثها فجور ، فيا ليت شعري متى يفقهون !

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من
الاستمتاع بالطيف ، كالذي يقول :

وزارني طيف من اهوى على حذر من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقف من حولي به فرحاً وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبعت وآمالي تكذبني نيل المنى فاستحالت غبطتي اسفا
ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف ، والسبب في زيارة الخيال ، كقول
أبي تمام :

زار الخيال لها لا بل ازاركه فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنصته لما نصبت له في آخر الليل أشراكاً من الحلم
وقوله من كلمة ثانية :

استزارته فكرتي في المنام فأنا في خفية واكتنام
يا لها ليلة تنزهت الأر واح فيها سرّاً من الاجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب غير أنا في دعوة الاحلام
وكقول عبد الصمد بن المعدل :

وصل النوم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير ان الارواح خافت رقيباً فطوت سرّها عن الأبدان
منظر كان لبذة القلب إلا انه منظر بغير عيان
فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتياك فكره ، ونصبه أشراكاً

من الحلم . والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعتدل هو النوم ، مع إبداعه في طي
الأرواح سرها عن الأبدان ، خوفاً من الرقباء !

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف : وهي ان الحبيب
سطع نوره وعمّ ، حتى شمل النائمين ، وتجلى لأعينهم ، على بعدم منه ، ونأيم
عنه . وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان :

يا حبذا طيفك من قادم يا احسن العالم في العالم
طيف تجلى نوره ساطعاً حتى رأته مقلّة النائم
يا غائباً يحكم في مهجتي عليّ طالت غيبة الحاكم
عار على حسنك ان يشكي حظي منه انه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال ، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه ،
والعلة في طروقه ، وإنما يجيد في وصف انعطافه ، وانصرافه ، كقوله :

مضى الفيث اجراعاً عهدت يحوها غزالا تراعيه الجأذو اغيدا
إذا ما الكرى اهدى إليّ خياله شفى قربه التبريح او نفع الصدى
إذا انتزعت من يديّ انتباهةً عدت حبيباً راح مني او غدا
فلم ار مثليتنا ولا مثل شأننا نعذب ايقاظاً وننعم هجدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله :

أملت بنا بعد الهدوء فساحت بوصل متى نطلبه في الجدد تمنع
وولت كأن البين يخالج شخصها او ان تولت من حشاي واضلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللفظة ، والافصاح عن الحسرة !

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول بشار :

ولقد تعرض لي خيالكم في القُرط والخلخال واللب
فشربت غير مباشر حرجاً برضاب اشنب بارد عذب

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

بتنا يناولنا المدام بكفه من ليس يخطر ان نراه بباله

تجنّ الكواكب من قلاند جيده وقتال عين الشمس من خلخاله
وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعم المباح بقوله :
وما نلتقي إلا على حلم هاجد يحلّ لنا جدواك وهي حرام
إذا ما تبادلنا النفائس خلطنا من الجد ايقاظاً ونحن نيام
وآلم به في قوله :

بنفسي خيالا من اثيلة كلما تأوهت من وجدي تعرض يطمع
تري مقلتي ما لا ترى من لقائه وتسمع اذني رجع ما ليس تسمع



خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب ان نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال . وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع الى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول : فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضمن المحبوب ، والقرب وقد شطت ديار الحبائب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله :

وقفنا فلا الاطلاع ردت اجابة ولا العذل اجدى في المشوق المخاطب
تمادت عقابيل الهوى وتطاوت لاجلة معتوب عليه وعائب
اذا قلت قضيت الصبا ردها خيال ملم من حبيب بجانب
يخود وقد ضمن الألى شغفي بهم ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر ان الطيف الم به في الظلام فلم يجد مكاناً يأوي اليه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله :

تلك البغيلة ما وصلي بمنصرف عنها ولا صدتها عني بمصدود
الم بي طيفها وهنا فأعوزه عندي وجود كرى بالدمع مطرود
واحب لو تأمل القارىء وصفه لحبيبتة بالبخل ، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء

وبما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال . وقد اكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة : فقد ذكروا انه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه اليه فيشتريه ، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال ! وقد اوضح شكواه هجر الخيال في هذه الابيات الحسان :

انسيم هل للدهر وعد صادق فيما يؤمله المحب الوامق
مالي فقدتك في المنام ولم يزل عون المشوق اذا جفاه الشائق

امنتَ انت من الزيارة رقبة
اليوم جاز بي الهوى مقداره
منهم فهل منع الخيال الطارق
في اهله وعلمت اني عاشق

ثم ردد هذا المعنى في داليتة الجميلة ، التي يقول فيها :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه
اظن نسبا قارف الهجر من بعدي
فيا عجباً للدهر فقدأ على فقد
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تحل
ابا الفضل في تسع وتسمين نعجة
أتأخذ مني وقد اخذ الجوى
وتخطو اليه صبوتي وصباقي
ولم يخطه بئى ولم يعده وجدي

ونحب ان لا يتعقبا حضرة (البدوي المثلث) فيطالبنا بتحقيق بيع البحري
لغلامه نسيم ، ليعرف اكان ذلك عن حاجة ام كان طمعا في المال ، فقد تردد
في ذلك المؤرخون ! اليس هو الذي "لمح اليما حين ذكرنا ان علمية بنت المهدي
كنت عن طلل بزيب ، ولقت نظرنا الى انها انما كنت بزيب عن رشأ ؟ رويدك
ايها الصديق ، فليس في هذه المجاهر يقين ، وحسبك ان تعلم ان ذلك سر من اسرار
القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة اذكر ان التعبير الحديث « شربوا نخب مصر ! وشربوا نخب
فرنسا » كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول علي في غلامها رشأ :

اشرب على وجه الغزال
اشرب عليه وقل له
الايف الحلو الدلال
يا غل ألباب الرجال

وانظر قول اسحق في غلامه زياد :

اديرها على بعد الحبيب فرمسا
فما بلغتني الكأس الا شربتها
شربنا على بُعد الاحبة والفسجع
والا سقيت الارض كأسا من الدمع

وقال ابن الفارض :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

فأي التعبيرين اجل ؟ اقول العرب : شربت على وجهه ، وعلى بعده ، وعلى ذكره ؟ ام قولنا شربت نخبه ؟ اجيبوا ايها المتكلفون !

ونعود فنذكر تشبث البحري بالطيف عند الصباح في قوله :
وليلة هوئنا على العيس أرسلت بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثي بعطفي غزال بت وهذا أغالته
وكم من يسد الليل عندي حميدة وللصبح من خطب تدم غوائله
أتذكر أيها القاريء ان لسانك انعمد ، وقد رأيت دمية من دمي الجمال ، فلم
تزد على ان قلت : هذه فتاة حسناء ؟ الأمر هنا كذلك ، فاعذرني إن لم أزد على
ان اقول : هذا شعر جميل !

ويظرف البحري كثيراً حين يجعل هجر الطيف نوعاً من العتاب . انظر
قوله :

تناءت دار علوة بعد قرب فهل ركب يبلغها السلاما
وجدت طيفها عتبا علينا فما يعتادنا إلا لاساما
وربت ليلة قدبت أسقي بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقاً وأفنيناه ضما والزاما

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق : انظر قوله :

وزور أفا في طارقساً فحسبته خيالاً أتى من آخر الليل يطرق
أقسم فيه الظن طوراً مكذباً به انه حق وطوراً أصدق
أخاف وأرجو بطل ظني وصدقه فله ظني حين ارجو وأفرق
وقد ضمنا وشك التلاقي ولفنا عناقاً على أعناقنا ثم ضيق
فلم نر إلا مخبراً عن صباية بشكوى وإلا عبرة تترقرق
فأحسن بنا والدمع بالدمع واشج تمازجه والحد بالحد ملصق
ومن قبل قبل التشاكي وبعده نكادها من شدة الوجد نشرق
فلو فهم الناس التلاقي وحسنه لحب من أجل التلاقي التفرق

وقد يأسى البحري ويشجى حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال ،

تأمل قوله :

حبيبٌ نأى الا تعرض ذِكْرُهُ له أو ملمٌ طائف من خياله
أُمنع في هجرانه من صباية وقد كنت صبا مغرمًا في وصاله
ويأمرني بالصبر من ليس وجده كوجدي ولا إعلان حالي كحالهِ
فان افقد العيش الذي فات باللوى فتيدهم فقدت الظل عند انتقالهِ

ولقد اذكر اني قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهي بدعة في الآداب
الفرنسوية . فأقسمت لأزورن ان استطعت قبر (لامارتين) واليوم اقسم ان
استطعت لأزورن قبر البحري !

أليس هو القائل في طيف الخيال :

أرى حيي لسعدى قاتلي وإذا ما أفرط الحب قتلُ
خطرت في النوم منها خطرةٌ خطرة البدر بدائم اضمحل
أي زور لك لو قصداً سرى ولم منك لو حقاً فعل
يتراءى والكبرى في مقالي فإذا فارقتها النوم بطل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها ببيتين في الخيال ، وقد زاره فما
حققه لفرط سروره به ، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه ، ولا عرف كيف
يلحقه . قال :

أنعم بوصلك لي فهذا وقته أنفقت عمري في هواك وليتني
أنفقت عمري في هواك وليتني يا من شغلت بحبه عن غيره
كم جال في ميدان حبك فاوس أنت الذي جمع المحاسن وجهه
قال الوشاء قد ادعى بك نسبة بالله إن سألوك عني قل لهم
أو قيل مشتاق اليك فقل لهم يا حسن طيف من خيالك زارني
يكفي من الهجران ما قد ذقته أعطى وُصولاً بالذي أنفقتهُ
وسلوت كل الناس حين عشقتهُ بالصدق فيك إلى رضاك سبقتهُ
لكن عليه تصبري فرقتهُ فسررت لما قلت قد صدقتهُ
عبدي وملك يدي وما اعتقتهُ أدري بذا وأنا الذي شوقته
من فرحتي بلباك ما حققتهُ

فمضى وفي قلبي عليه حسرةٌ لو كان يمكنني الرقاد لحقته
والشعراء يشكون غالباً ألا يمكنك الطيف طويلاً . وقد شد الطغرائي فذكر
ان محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده ، وطول مكثه لديه . وذلك قوله :

بعثت إليّ تلومني في هَجْعَةٍ اهدت إليّ خيالها المذعورا
وتقول ما للطيف أبطأ بعدما كنا اشترطنا ان يقيم يسيرا
فأجبتها بالعدر وهو مبينٌ لو كان يُنصف لائمٌ معذورا
أطبقت اجفاني عليه وسمته خوض الدموع فما استطاع عبورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد . فان الطيف لا يدخل الدين ، حتى يُضطرب
إلى عبور الدمع ، وهدى الله قوماً يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال !

قالوا : وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله :
فقل لخيال العامرية ينقلب اليها فاني واصلٌ حبلٌ من وصل
وتبعه جرير فقال :

طَرَقَتْكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
وهذا حدسٌ وتخمين ، فانه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل .

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانيء الأندلسي :

ألا طرقتنا والنجوم ركودٌ وفي الحبيّ أيقاظٌ ونحن هُجُود
وقد أعجل الفجر الممتع خطوها وفي أخريات الليل منه عمودٌ
سرت عاطلاً غصبي من الدر وحده فلم يدر نحرٌ ما دهاه وجيد
فما برحت الا ومن سلك ادمعي فلأند في لبائها وعقود
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا وأنا بلينا والزمان جديد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال .
انظر قول علي الايادي :

أما انه لولا الخيال المراجع وعاصٍ يرى في النوم وهو مطاوع
لأشفق واستحيا من النوم والهـ يرى بعد روعات النوى وهو هاجع
وأود لو تأمل القاريء قوله (وعاصٍ يرى في النوم وهو مطاوع) فطالما

قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله :

واني لأستغشي وما بي نعمة لعل خيالاً منك يلقى خيالها
وأخرج من بين الجلوس لعلني أحدث عنك النفس في السر خالها
تقطع أنفاسي بذكرك أنفاساً يردن فما يرجعن إلا صواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح :

واني لأهوى النوم في غير نعمة لعل لقاء في المنام يكون
تخبرني الأحلام أني أراكم فيا ليت أحلام المنام يقين

والظاهر ان نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعاً . فهي عند بعضهم لوعة
وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين يقول :

وماذا يفيدك طيف الخيال لوالهجر حظك من تحب
غناء قليل ولكنني تمنيت به بقنوع الحب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الغيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ،
كقول جعفر بن عتبة :

عجبت لمسراها وأنى تخلصت إلي وباب السجن دوني مغلق
ألمت فحيث ثم قامت فودعت فلما توالت كادت النفس تزهرق
فلا تحسني أني تخشعت بعدكم لشيء ولا أني من الموت افرق
ولا ان نفسي يزدهيها وعيدهم ولا انني بالمشي في القيد اخرق
ولكن عرتني من هواك صباية كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

وقد ترقى زياد بن كحل فمعجب كيف زاره طيف حبيبته مع انها ضعيفة المشي
مكسال . وذلك قوله من قصيدة طويلة :

زارت رويقة شعثاً بعدما جمعوا لدي نواحل في ارساغها الغندم
وقمت للزور مرتاعاً فأرقني فقلت اهي سرت ام عادني حلم
وكان عهدي بها والمشي يبطلها من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتسكاليف تأتي بيت جارتها تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم

سود ذوائبها بيض ترائبها دُرْم مرافقها في خلقها عَمَمُ
 رويق إني وما حيج الحبيج له وما اهلٌ يجني نخلة الحرْمُ
 لم ينسني ذكركم مُذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قِدمُ
 ولم تشاركك عندي بعد غانية لا والذي اصبحت عندي له ذِمَمُ
 ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعده الشقة كقول ابن
 عنين .

سأحت 'كتيك في القطيعة عالماً ان الصحيفة اعوزت من حامل
 وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل
 وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف :
 لقد بخلتُ حق بطيف خيالها عليّ وقالت رحمةً لنجيب
 اخاف على طيفي إذا جاء طارقاً وسادك ان يلقاه طيف رقيب

طرف ادبية

وقد يكون من المستلح ان تذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف
 الخيال . فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل :
 رأيت في النوم اني راكب فرساً ولي وصيفٌ وفي كفي دنانيرُ
 فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ رأيت خيراً وللأحلام تعبيرُ
 رؤياك فسرّ غداً عند الأمير نجد في الحلم درأ وفي النوم التبشيرُ
 فوقع في اسفل الكتاب « اضغاث احلام وما نحن بتأويل الاحلام بمالين » !!
 ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده :

أغفيت عند الصبح نوم مسهّدٍ في ساعة ما كنت قبل أنامها
 فرأيت انك رعتني بوليدة رعبوبة حسنٍ عليّ قيامها
 وببدرةٍ نحلت إلي وبغلةٍ دهماء مشرقة يصل لجامها
 فدعوت ربي ان يثيبك جنة عوضاً يصيبك بردّها وسلامها

فقال له : ابشر في كل شيء الا البغلة فاني لا املك إلا شهباء ! فقال : امرأتِي
 ظالتي ان كنت رأيتها إلا شهباء غير اني غلطت !

ونقل عن ابي العبر انه كان عنده حمار فبات فراءه في النوم ينشد شعراً يقول فيه انه مات عاشقاً ، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه ؟ فقال : كان يا امير المؤمنين اعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ! فاعتلّ على حين غفلة ، فبات ، فرأيت في النوم فقلت له . ألم أنقّ لك الشعير و ابرد لك الماء ، فما سبب موتك ؟ فقال اتذكر اذوقفت على باب الصيداني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك انا فافتنت بها ومات ! فقلت وهل قلت شيئاً في ذلك ؟ فقال نعم وانشد :

هام قلبي بأنا
تيمّني يوم رُحنا بشناياها الحسان
وبخذّ ذي دلالٍ مثل خد الشيقران
فبها متّ ولو عشت إذأ طال هواني

فقال له يا أبا معاذ . وما الشيقران ؟ فقال انا مشغول بما انا فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فاذا رأيتم حماراً ، او من كان اولاً حماراً ، فاسألوه ! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم امر له بعشرة آلاف درهم ، جزاء بما ابدع في هذا الخيال .



اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء ، وليس فيهم من لم يُرزأ باليأس والقنوط .

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس ، قرأيت منهم من يترك لأجله العتاب كقول ابن الأحنف :

سكوتي بلاء لا أطيق احتماله وقلبي ألوف للهوى غير نازع
واقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعلمي انه غير نافع
واني إذا لم ألزم الصبر طائعا فلا بدّ منه مكرها غير طائع
إذا انت لم يعطفك إلا شفاعته فلا خير في ودّ يكون بشافع

وقد عزّى نفسه ابن الأحنف حين يش بقوله :

لعمري لقد جلبت نظرتي اليك عليّ بلاء طويلا
فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق اليه السبيل
هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاء جملا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا
ولاني لأتمنى ان يرحمني الله من عذابي ، بترديد هذا البيت الجميل :
فيا ويح من كلفت نفسه بمن لا يطيق اليه السبيل
ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع . كما قال صردر :
لا أمدح اليأس ولكنه أروح للنفس من المطمع

باليثاني قبل وقد الهوى
أذن للعدل على مسمي
أين بدور من بني دارم
تبخل أن تسفر في مطلع
لا في سرار الشهر تبدولنا
ولا ليالي العشر والأربع
أودعهم قلبي وما خلتهم
يستحسنون الغدر بالمودع
لوزارني طيفهم ما دري
من الضنى أني في مضجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، بياسه وقنوطه . ولم أجد في هذا المعنى
أبداع من قول الطغرائي :

من مبلغ الحبي شطت دارهم ورضوا
بالجار جاراً وما أرضى بهم عوَضاً
قد طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم
عن الرضاع تقضى والشباب مضى
إن الزمان الذي كانت بشاشته
للقلب والعين ملهى بان فافترضا
فان نسيت فياس لم يدع طمعا
وان ذكرت فمرق ساكن نبضا
حكمت في مهجتي من ليس ينصفني
ولست أبلغ من تحكيمه غرضاً
سيان عندي وأمرى صار في يده
قضى عليّ يحور أم إليّ قضى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء ، وان عجب لذلك بعض الناس . فمن المحبين من
يلهج بالأمل ترويحاً لنفسه ، وترفيهاً لقلبه ، كالذي يقول :

أعلل بالمنى قلبي لعلي
أروح بالأمانى الهم عني
واعلم ان وصلك لا يرّجى
ولكن لا اقل من التمني

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعّد الحزين كما قال ياقوت :

لله أيام تقضت بكم
ما كان أحلاها وأهنأها
مرّت فلم يبق لنا بعدها
شيء سوى أن نتمناها

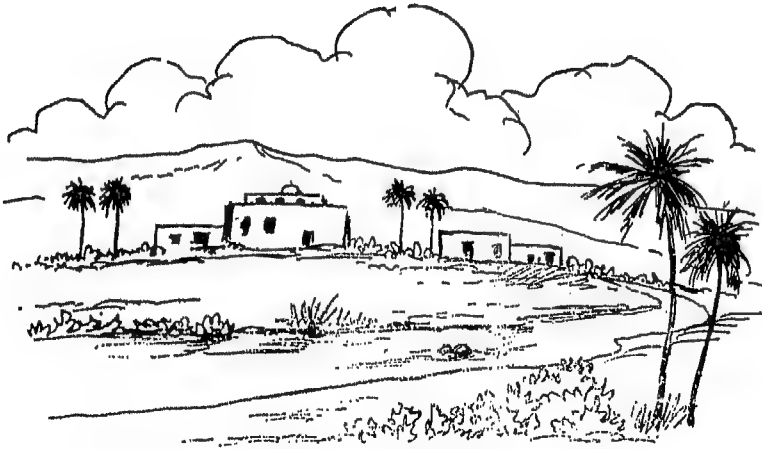
ويكاد الامل يصرخ في قول مسلم بن الوليد :

أدهراً تولى هل نعيمك مقبل
وهل راجع من عيشنا ما نؤمل
أدهراً تولى هل لنا منك عودة
لملك يعدى آخراً منك أول

واوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق :

لأصبرنّ لدهر لا يمتعني به ولا بيّ في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقب فرجاً فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
علّ الليلي التي اضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه

ولو سُئِلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي هذه الدعوة :
المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة « يا ربّي ! إنني ما جعدت نعمتك يوم
رزقني بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم اقصيتهم عني ، وهأنذا انتظر فضلك
وطولك ، في ردم إليّ ، وعطفهم عليّ . فلولا الثقة برحمتك ، والايان باحسانك ،
لذهبت النفس عليهم جسرات . وقُطِع القلب في آثارهم قِطعاً . »



العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، يادي الخضوع ، نزولا عند حكم الهوى ،
وإيماناً بعودة الحبيب ، كقول القائل :

يا غاية القصد واقصى المنى وخير مرعى مقلة الناظر
إن كان لي ذنبٌ ولا ذنب لي فما له غيرك من غافر
اعوذ بالود الذي بيننا ان يفسد الاول بالآخر

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، ان يتوسل الحب بسالف
حبه ، وساضي عهده ، وان يجعل الامر في غفر ذنبه لحبيبه .
وقال ابن التعاويذي :

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي بينكم والوفاء في العرب دين
كيف اسلمت فيك قلبي الى الاش بجان لولا ان الغرام جنون
اترينني على النوى مضمرأ عن لك سلوا اني اذن لحشون
انا من قد علمت عهدي على النأ ي وثيق وحبل ودي متين

ولا يكون العتاب باباً للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ، كقول ابن
زيدون :

يا قمرأ اطلعه المغرب قد ضاق في حبك المذهب
ألزمتني الذنب الذي جثته إلي فاصفح ايها المذنب
وكقول الآخر :

إذا مرضتم اثينا كم نعودكم وتذنبون فنأتكم فنعتذر
فأما قول البحري :

قد كان مني الوجد غيبٌ تذكر إذ كان منك الصدغ تناسي

تجري دموعي حيث دمعك جامدٌ ويرق قلبي حيث قلبك قاسي
فهو بالتأنيب اشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحري نفسه في كلمة
ثانية :

إني وإن لم ابح بوجدي أسرُ فيك الذي أسرُ
يا ظالماً لي بغير جرم اليك من ظلمك المفرُ
انت نعيمي وانت يؤسي وقد يسوء الذي يسرُ

وقوله من كلمة اخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعاً :

ايا قمر التام اعنت ظلماً عليّ تطاول الليل التام
أما وقتور لحظك يوم ابقى تقلبه فتوراً في عظامي
لقد كلفتني كلفاً أعني به وشغلتنني عما امامي
اعينك ان يراق دم حرامٌ بذاك الدلّ في شهر حرام

ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال ، واتمنى لو تأمل
القارئ قليلاً هذا البيت الجميل :

يا ظالماً لي بغير جرم اليك من ظلمك المفرُ

فانه خير من قول ابن زيدون :

ألم تمنني الذنب الذي جئته إلي فاصفح ايها المذنبُ

وهل رأى القارئ ، أروح للنفس ، وامتع للقلب ، من هذا القسم :

أما وقتور لحظك يوم ابقى تقلبه فتوراً في عظامي

وهل رأى حيرة للحب اشقى من حيرة الذي يقول :

لقد كلفتني كلفاً أعني به وشغلتنني عما امامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون ما نعلم من جمال
اللغة الفصيحة ليعرفوا انهم يحنون على انفسهم ، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من
التطلع إلى جنة الادب ، وقطوفها الدانية ! ولو عرضت على كتاب العامية هذا
البيت :

إني وإن لم ابح بوجدي اسرفيك الذي اسرُ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى الى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزاً عن الكتابة باللغة التي رحبت بشمرات العقول في جميع الامم الاسلامية ، وكانت لغة العالم زمناً غير قليل .
ولا يحسب واحد من هؤلاء ان الحسن في الادب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق ادبية يرتكز عليها الجمال . في الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه ان العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيداناً بالتفخيم والتهويل ، كلفظة « ما » في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على ان ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحري :

برح بي حبك المعنيّ وغرّني منك ما يغرّ
إذ كانت دواعي الحب ، واسباب العشق ، مما يقصر عن ادراكه المحب المفتون ، والعاشق المأسور !

ومن ذلك لفظة « الذي » في هذا البيت المختار :
اني وان لم ابح بوجدي اسرّ فيك الذي اسرّ
إيداناً بأن ما يحنه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، اجل من ان يحيط به الوصف ، او يناله البيان !
ومن العشاق من يضيف الى ذلة العتاب ، ذلة الإقرار بالذنب كقول الشريف :

ايا شاكياً مني بذنب جنيته	فديتك من شاكٍ اليّ حبيبٍ
لئن راب مني ما يريب فأنني	على عدواء الداء غير مريب
واني لأرعى منك والود بيننا	هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهب لي ذنباً واحداً كنت قلته	فما زلة من حازم بعجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنباً	اتوب وما دامت تعد ذنوبي

والبيت الاخير يذكرنا بقول بشار :
ومن ذا الذي 'ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا ان تعدّ معايبه'

ومن بديع الشعر في وصف العتاب ، وما فيه من ذلة العاشق ، وعزة المعشوق
قول الشريف :

ومقبّل كفي وددت لو انه او ما الى شفتي بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر الملل وذلة الملل
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجبال بقرطقي محلول
جدلان ينفذ من فروج قميصه اعطاف غصن البانة المطلول
من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل
وقوله :

ومقبّل كفي وددت لو انه او ما الى شفتي بالتقبيل
يذكرنا بقول صاحب بن عباد :

اهوى لتقبيل يدي فقلت لا . بل شفتي !

وخيرة امثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في امثال هذه المواقف
حيرة رهيبة ، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه
البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس الى مثل الشريف الرضي
بتقبيل يناه ، فيود هذا لوقبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالمظمة ،
وقضى عليه بتقديس الجمال ! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه : حين يذهب
بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغرور المال ، ثم يسوي بين الاقدار ، ريثما ينسى
العالم علمه ، والوجيه جاهه ، والغني ماله ، حتى إذا انست تلك النفوس
المعانيه الى هذه المساواة ، عاد فميز اهل الحسن ، ورفع ارباب الجمال ، وصير
الحسين اذلة ، بالرغم من انف العلم والجاه والمال ! ويقول العرب : الهوى اله
معبود ، وانهم لصادقون . غير انه يحسن ان نعرف ان هذا الإله ليس برحمن
ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث
ما يستحقه من البيان ، ولينت للقارئ رأي الفلاسفة في مملكة الجمال ، ولكن
الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور : يودي به مرالطيف
وهبوب النسيم ! والذين يختلفون في النظرة البريئة احرام هي حلال ، لا يعقلون

كيف يَكوي الهوى إلهاً ، وكيف يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور ،
والعيون ، والحدود ، والشفور ، والنحور والصدور ، وهم ان عقلوا هذه الالهوية
فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب انبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم
ماجن خليع ، قاتلهم الله انى يؤفكون !

ونعود فنبين ان الشريف اجاد تصوير العتاب بقوله :
جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر الملل وذلة الملل
والمراد بكبر الملل عزة المعشوق ، الذي تحدثه عن هجره وصده ، فكأنما
تُسمع هجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو ارحته من حديث
الحب : إذ كان الحسن يسد اذن الجميل ، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ،
وما ابدع الغزل في قوله :

جذلان ينفذ من فروج قميصه اعطاف غصن البانبة الملول
ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك ابراهيم يذكر الشريف الرضي الا
ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب ! ولعل ابرع ما قيل في التطلع إلى
الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا البيت المختار :

من لي به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل
ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز سقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه
كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال :
فدع ذكر سعدى إن فيك تقية ألا انما يبغى المها من يصيدها
وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس
للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الاعراب :

احباً على حبٍ وانت بخيلة وقد زعموا ان لا يُحب بخيل
بلى والذي حجج الملبون بيته ويشفي الهوى بالنيل وهو قليل
وإن بنا لو تعلمين لفلة اليك كما بالحائات غليل

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقه ، ويجب من اجل
ذلك اعداءه الظالمين ، كقول ابي الشيص الخزاعي :
وقف الهوى بي حيث انت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم

اجد الملامة في هواك لذينة حباً لذكرك فليعني اللوم
اشبهت اعدائي فصرت احبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
واهنتني فأهنت نفسي صاغراً ما من يهون عليك من أكرم

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلاء ،
كقول ابن الدمينه :

وانت التي كلفتني دالج السرى وجون القطا بالجهتين 'جثوم
وانت التي قطعت قلبي حزااة وفرقت قرح القلب فهو كليم
وانت التي احفظت قومي فكلهم بعيد الرضاداني الصدود كظيم

وقد اجابته محبوبته أمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة
الوشاة ، وشماته اللاثمين ، حين تقول :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم
وابرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أرمى وانت سليم
فلو ان قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلوم

وقد ضعف ابن الدمينه عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث اليها الابيات
الآتية ، يسألها الصفح والغفران :

واذا عتبت عليّ بت كأنني بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد اردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم
يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك انه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر احبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع
للصد ، ولا تحمل الهجر ، كقول الطغرائي :

ويا رُفقة مرّت يجزعا مالك تؤم الحمى أنضأوها المطايا
نشدتكم بالله الا نشدتكم بها شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحيّ نازلين بقرها أقاموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعي صروف الليالي إن في الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لايأس بن القائف إذ يقول :

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم اخاك الدهر ما دتما معاً كفى بالممات فرقة وتائيا

وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن
العتاب :

أقلل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذمت صروفه إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألت مدة ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الأخاء جماعة إن حصّلوا أفناهم التصحيل
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن علي منك عويل
ولتفجعن بخلص لك وامق حب الوفاء بحبله موصل
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشا كله لدي خليل
وليذهبن بهاء كل مروءة وليفقدن جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا باق عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكثر عتبنا ويطول

على ان الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف
الليالي ، لم يمنعه من ان يصرخ شاكياً في نفس القصيدة . فيرمي أحبابه بالخيانة
والنسيان ، وذلك قوله :

أفي الحق اني قد قضيت ديونكم وان ديوني باقيات كما هيا
فوا أسفي ، حتام أرعى مضيقاً وآمن خوّاً أنا وأذكر ناسيا
وما زال احبابي يسيئون عشرتي ويحفونني حتى عذرت الأعاديا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام :

أحبابه لم تفعلون بقلبه ما ليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الارجاني هذا المعنى فقال :

أحبابنا كم تجرحون بهجركم فؤاداً يبيت الليل بالهم مكدا
إذا رمتم قتلي وأنتم أحبة فما الذي أخشى إذا كنتم عدا

سأضمر في الاحشاء منكم تحرقاً واطهر للواشين عنكم مجلداً
وأمنع عيني اليوم أن تكثر البكا لتسلم لي حق أراكم بها غداً
ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبائهم بقصر الحياة
أبو صخر الهذلي في هذه الابيات الموجهة :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم
قد كان صرمٌ في الممات لنا فمجلت قبل الموت بالصّرم
ولما بقيت ليبقين جوى بين الجوانح مضرعٌ جسمي
فتعلمي أن قد كلفت بكم ثم افعلي ما شئت عن علم

وما ذكرت هذه المعاني الحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا اراه إلا زفرة
تتصعد ، أو عبارة تتدفق :

وأرى الايام لاتدنى الذي أرتجي منك وتدنى أجلي !!
ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة ، يرمى بها الحب العميد ، قول الشريف
يعاتب حبيباً أغراه بالحب ، ثم اصلاه الصدود :

يا صاحب القلب الصحيح اما اشتفى ألم الجوى من قلبي المصدوع
أسأت بالمشاق حين ملكته وجزيت فرط نزاعه بنزوع
هيات لا تتكلفن لي الهوى فضح التـطبيع شيعة المطبوع
كم قد نصبت لك الجبال طامعاً فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي أسفاً على ذاك اللئى الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلة جرّعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقرير
أبكى ويبسم والدجى ما بيننا حتى اضاء بثغره ودموعي
تفلي انامله التراب تعللاً وأنامي في سني المقروع
قمرٌ اذا استخجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لوحيث يُستمع السرار وقفتا لعجبتا من عزه وخضوعي
أبغى هواه بشافع من غيره شر الهوى ما نلت به شفيح

أهون عليك إذا امتلات من الكرى أني ابيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله لو ان قلبك كان بين ضلوعي
وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة ، وبينها وبين موضوعها
بون شاسع ، وهما قوله :

ما كان إلا قبلة التسليم أر دفا الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وانما تاريخ وصلك كان مذ اسبوع
فان هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم ، والتنافر بين هذين
البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الاقل من مقابلتها بهذا البيت الجميل :

أهون عليك إذا امتلات من الكرى اني ابيت بليلة الملسوع
فانه يدل على ان الحبيب غير بعيد ، وانه في قربه نافر شرود ، مما يذكرنا
بقوله من كلمة ثانية :

أبيت والليل مبثوث حباله والوجد يقنص مني كل مجلود
شوقا اليك واشفاقا عليك ولي دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به ان القريب قريب غير مودود
وانما اردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارئ الى ان في الدواوين اشياء كثيرة
نسبت زورا إلى الشعراء ، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص . والادباء
يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب ، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت
المختار :

لو حيث يستمع السرار وفتما لعجبتا من عزه وخضوعي
والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليمنى في
المجون :

ونافر الاعطاف عاملته بالالطف حتى سكن النافر
ولم أزل أمسح أعطافه ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجل مطرقا وكل إعراض له آخر
عجبت من ذلي ومن عزه في موقف عاذله عاذر

في ليلةٍ ساهرها نائمٌ فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا جَوْهُ إلى ان وقع الطائر
فبتُ من فرط اغتباطي به اظن اني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يحميد الشعر في العتاب ، وهو صاحب هذه الابيات المختارة :

خذ في افانين الصدود فان لي قلباً على العيالات لا يتقلبُ
أتظنني اضمرت بعدك سلوةً هيهات عطفك من سلوتي اقرب
قد كنت تنصفني المودة راكباً في الحب من اخطاره ما اركب
فاليوم اقنع ان يمرّ بمضجعي في النوم طيف خيالك المتأوّب

وهو ايضاً صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين :

يا نازحاً ليس يدنو وعاتباً ليس يرضى
يا واجداً وديوني في حبه ليس تقضى
أمرت عيني ففاضت ومضجعي فاقضاً
ارقد هنيئاً فاني ما ذقت بعدك غمضاً

ومن الظلم للعواطف ان لا تفصل مذهب العباس بن الاحنف في العتاب ، فان شعره آية الآيات في الشكوى من الهجر ، والتوجع من الصدود ، وهو مع هذا يعد ايام الهجر احسن ايامه ، ويقول :

واحسن ايام الهوى يومك الذي تُروّع بالهجران فيه وبالعتبِ
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضاءً فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا امل بعيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزى ابن الاحنف بمن ينبذ كتبه ، ويمزق رسائله ، وفي هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية :

وصالكٍ مظلمٍ فيه التباسٌ وعندك لو أردت له شهابُ
وقد تحملت من حبيك ما لو تقسم بين اهل الارض شابوا
افريقي من عتابك في أناسٍ شهدت الحظ من قلبي وغابوا
يظن الناس بي وبهم وانتم لكم صفو المودة واللباب

وكننت إذا كتبت اليك اشكو ظلمت وقلت ليس له جواب
فعمشت اقوت نفسي بالاماني اقول لكل جاعحة اياها
وصرت إذا انتهى مني كتاب اليك لتعطيني نبت الكتاب
وان الود ليس يكاد يبقى إذا كثرت التجني والعتاب
خففت لمن يلود بكم جناحي وتلقوني كأنكم غضاب

وقد اكثر ابن الاحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى ، وهو صاحب
هذا البيت الحزين :

ويقتنعي من احب كتابه ويمتنعني ، إنه لبخيل !
وكثيراً ما يميل ابن الاحنف الى الصفح الجميل ، إذ يرى العتاب لا يعطف
القلوب ، إن لم تضمر الحنان . وقد افصح عن ذلك في هذه الابيات :

انكر الناس ساطع المسك من دج لمة قد اوسع المشارع طيبا
فهمو يعجبون منه وما يدرو ن ان قد حلت منه قريبا
قاسميني هذا البلاء وإلا فاجعلي لي من التعزي نصيبا
ان بعض العتاب يدعو الى العت ب ويؤذي به المحب الحبيبا
وإذا ما القلوب لم تضمر العط ف فلن يعطف العتاب القلوبا

وما اجمل العزة في قوله :

خففت لمن يلود بكم جناحي وتلقوني كأنكم غضاب

وقوله :

خففت طرفي لأدنى من يلود بكم حتى احترقت وما مثلي بمحتقر

واي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصباة ؟ ومتى عرف الهوى قيمة
العزة في نفوس الاعزاء ، فعصمها عن مداراة قوم يحيطون بالجمال ، احاطة
الاشواك بالورود ؟

وقد نرى ابن الاحنف يائساً من نفع العتاب ، فنقرأ له هذه الابيات في التبرم
بالسكوت :

سكوتي بلاء لا اطيق احتماله وقلبي الوف للهوى غير فارع

فأقسم ما تركي عتابك عن قلبي ولكن لعمري انه غير نافع
واني إذا لم ألزم الصبر طائعا فلا بد منه مكرها غير طائع
إذا انت لم يعطفك إلا شفاعته فلا خير في ودّ يكون بشافع

وربما رأيناه زاهداً في العتاب ، لأن محبوبته لا تصد صد العتاب ، بل صد
الملول وذلك قوله :

لو كنت عاتبة لسكن لوعي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صد الملول خلاف صد العاتب
ما ضر من قطع الرجاء ببخله لو كانت عئلني بوعدي كاذب
على ان ابن الاحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب ، بل رأيناه يعجب
بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيداً من يقول :

يا رب جارية أسلبت عبرتها من رقة ولغيري قلبها قاسي
كم من كواعب ما ابصرن خطيدي إلا تمنين ان يأكلن قرطاسي

وكان البها زهير ، احد وزراء مصر في أيامها الخوالي ، من ارق الشعراء في
العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين المحب والحبيب ، او رنين الحلى عند
عناق الحسان ، او خفوق الامل في قلب اليائس المحزون . انظر إلى اعتذاره
عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل :

مولاي من سكر الدلا لعبثت والسكران عابث
ونكشت عهداً في الهوى ما خلت انك فيه ناكث
لك لا اشك قضية انا سائل عنها وباحث

وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة والسكر ،
فنراه في موطن آخر يقول :

اضنى الفؤاد فمن يريحه وحى الرقاد فمن يبيحه
ونضا من الاجفان سيد فاعلم ما يبقى جريحه
نشوان من خمر الدلا لغبوقه وبها صبوحه

والذي يعنيننا الآلي شرح مواقفه في العتاب ، لانها تمثل الروح المصرية ، وما

لها من السباحة المصحوبة بالشَّمَم والإباء . فحينئذ ينفي ما ذاع من سلوه ، حتى
هجره احبابه ، فيقول :

يا هاجرين وحقكم هَوَّتُمْ ما لا يهونُ
قلتم فلانٌ قد سلا ما كان ذاك ولا يكون
وحياتكم وهي التي ما مثلها عندي يمين
ما خنت عهدكم كما زعم الوشاة ولا اخون
يا من يظن بأنني قد خنتهُ غيري الخئون
لو صحَّ ودك صح ظنك لي وبان لك اليقين
يا قلبَ بعض الناس كم تقسو عليَّ وكم ألين
يا ويلتاه لمن يُخا طيب أولم يشكو الحزين
قد ذلَّ من كان المعية بن له هو الدمع المعين

وحينما يمزج العتاب بالشكوى فيقول :

يا عاز الناس عندي كيف خنت اليوم عهدي
سوف اشكوك لك بعدي فعمسى شكواي تجدي
اين مولاي يراني ودموعي فوق خدي
اقطع الليل اقصي ما اقصي فيه وحدي
ليتني عندك يا مولاي ي أو ليتك عندي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه ، فيقول :

من لي بقلب اشترى من القلوب القاسية
إنني لأطلب حاجةً ليست عليك بخافية
أنعم عليَّ بقبلة هبة وإلا عاريه
وأغيدها لك لا عدمت بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادةً خذها ونفسي راضيه
فعمسى يحود لنا الزمان بخلوة في زاويه
أوليتني ألقاك وحدهك في طريق خاليه

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب ، ولكن البها زهير كما قلنا
مصري الروح : فهو في رفته غضوب : ألم تر اليه وقد تبدل من يهوى ، فرماه
بهذه الصاعقة :

يا من تبدل في الهوى يهنئك صاحبك الجديد
إن كان اعجبك الصدود د كذاك اعجبني الصدود
واعلم بأنني لا اريد د إذا رأيتك لا تريد
وأنا القريب فان تغير ر صاحبي فأنا البعيد

وقد اوضح هذا المعنى ووفاه ، في الكلمة الآتية :

سأعرض عن راح عني معرضاً وأعلن سلواني له وأشيعه
واحجب طرفي عنه فهو رسوله واحجب قلبي عنه فهو شفيعه
وكيف ترى عيني لمن لا يرى لها ويحفظ قلبي في الهوى من يضيعه
واقسم لا تجري دموعي على امرئ إذا كان لا تجري علي دموعه
فلو خان طرفي ما حوته جفونه ولو خان قلبي ما حوته ضلوعه

واوضح من هذا قوله من كلمة ثانية :

هو حظي قد عرفته لم يحل عما عهدته
فاذا قصر من اهوا ه في الحب عذرتة
غير اني لي في الخ ب طريق قد سلكته
لو اراد البعد عني نور عيني ما تبعته
إن قلبي وهو قلبي لو تجتني ما صحبتته
كل شيء من حبيبي ما خلا الغدر احتملته
أنا في الحب غيور ذاك خلقي لا عدمتة
أبصر الموت إذا أبه ر غيري من عشقته

نوح الحمام

لقد ألمنا ألمامة قصيرة بنوح الحمام عند اسباب المدامع ، واليوم نفصل
مذاهب الشعراء في هذا الباب : فمنهم من يحن إلى الحمام الشادية ، ويتمنى لو
عدن إليه ، فاذا عدن أسلمته إلى البكاء ، كما قال المجنون :

ألا إحمامات اللّوى عدن عودةً فاني إلى اصواتكن حزينُ
فعدن فلما عدن كدن يمتنني وكدت بأشجاني هنّ أبينُ
فلم ترّ عيني مثلهنّ بواكياً بكين ولم تذرف هنّ عيون

ومن الشعراء من يذكر ان الحمام الباكية تبعث الهوى في قلب الحليّ ،
فكيف بالشجيّ ، وأن أنغامها ليست دموعاً ولكنها امضى من الدموع ، كما
قال ابو تمام :

بعث الهوى في قلب من ليس هائماً فقلّ في فؤاد رُغمه وهو هائمُ
لها نغمٌ ليست دموعاً فان علت مضت حيث لا تمضي الدموع السواجم

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام ، ويراه تداوياً من الداء بنفس الداء ، كقول
ابن عبد ربه :

فكيف ولي قلب إذا هبت الصبا اهاب بشوق في الضلوع دفينِ
ويحتاج منه كلما كان ساكناً دعاء حمام لم تبت بكون
وان ارتياحي من بكاء حمامة كذي شجن داويته بشجون
كان حمام الأيك لما تجاوبت حزين بكى من رحمة الحزين

ويسمون الحمامة « مطوقة » لطوقها الخضب الجميل ، كما قال ابن عبد ربه :
ونائح في غصون الايك أرّقني وما غنيت بشيء ظلّ يعنيه

مطوّقٌ به غضابٍ ما يزيلهُ حتى تزيلهُ احدى تراقيه
 قد بات يشكو بشجوما دريئت به وبات اشكو بشجور ليس يدرية
 ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية ، فيذكر انها تبكي بلا
 دمع ، وان لفها منها قريب ، كما قال ابو محم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه
 طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وأرقني بالريّ نوح حمامة فنحت وذو الشجو الغريبُ ينوح
 على انها ناحت ولم تذر دمةً ونحت واسرابُ الدموع سفوح
 وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون افراخي مهامه فيبحُ
 ألا يا حمام الايكِ إلفك حاضراً وغصنك ميّادُ ففيم قنوحُ
 أفق لا تنح من غير شيء فأنني بكيت زماناً والفؤاد صحيح
 ولوعاً فشطتُ غربةً دار زينبٍ فهأنا ابكي والفؤاد جريح

ومما يجدر ان يكون « صورة شعرية » في وصف الحمامة الباكية قول
 الطغرائي :

أبكيتُ صدحت شجواً على فننٍ فأشعلت ما خبا من نار اشجاني
 ناحت وما فقدت إلفاً ولا فجعّت فذكرتني اوطاري واوطاني
 طليقةً من إسار الهمّ ناعمةً اضعحت تجدد وجد الموثق العاني
 تشبّهت بي في وجدي وفي طربي هيهات ما نحن في الحالين سيّانٍ
 ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ من نار قلبي ولا من ماء اجفاني
 ياربّة البانة الغناء تحضنها خضراء تلتف اغصاناً بأغصان
 إن كان نوحك إسعاداً لغتربٍ ناء عن الاهل ممنوّ بهجران
 فقارضيني إذا ما اعتادني طربٌ وجداً بوجدٍ وسُلواناً بسلوان
 اولا فقصركِ حتى استعين بن يعنيه شأني ويأسو كَلَم احزاني
 ما انت مني ولا يعينك ما اخذت مني الهموم ولا تدرين ما شاني
 كيلى إلى الغيم إسعادي فإن له دمعاً كدمعي وإرثاً كإرثاني

وهذه القصيدة من ابداع ما قال الشعراء في الهائمات الشاديات . وهي انموذج

لملاحه التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب منها قول ديك الجن :

حمامٌ وُرُقٌ في حمى وِرَقٍ خضرٍ لها مُقَلٌ تجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة ان بككت وإن كن لا يدرين كيف جوى الصّدر
لها حُرَقٌ لو ان خنساء اعثّلتُ بهن لادّت حق صخرٍ الى صخرٍ
فقلت لنفسي ها هنا طلب الاسى ومعدنه ان فانتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر الى الخرافة القديمة في نوح الحمام : فان العرب يذكرون
انه كان لمن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يكيّنه الى الآن ! ؟ وهو
المعني بقول نصيب :

لقد راعني للبين نوح حمامةٍ على غصن بانٍ جاوبتها حمامٌ
هو اتف أمّا من يكيّن فعهدهٌ قديمٌ واما شجوهنّ فدائمٌ

ومن ذكر الهديل حميد بن ثور في هذه الابيات الحسان :

إذا نادى قريبته حمامٌ جرى اصباقي دمعٌ سفوحٌ
يُرَجِّعُ بالدعاء على غصون هتوف بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله مني اذا ما تغرّد ساجعاً قلبٌ قريح
فقلت حمامة تدعو حماماً وكل الحب نزاعٌ طمّوح

قا ابو بكر بن دريد : خرجنا من عمان في سفر لنا ، فنزلنا في اصل نخلة ،
فنظرت فاذا فاختتان تزقوان في فرعها ، فقلت :

اقول لورقاوين في فرع نخلةٍ وقد طفّل الإسماء او جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحرُ
ليهنّيكما ان تُتراعا بفرقةٍ ومادب في تشيتت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطعَ الشوق قلبه على انه يحكي قساوته الصخر

ومن جيّد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان
الخفاجي :

اتظن الورق في الايك تغنى انها تضمرُ حزننا مثل حزنني
لا أراك الله نجداً بعدها ايها الحادي بها ان لم تجبني

هل تُباريني الى بث الجوى في ديار الحي نشوى ذات عُصن
هَبْ لَنَا الشَّبَقَ وَلَكِنْ زَادَنَا اِنَّا نَبْكِي عَلَيْهَا وَتَغْنِي
يَا زَمَانَ الْخَيْفِ هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ يَسْمَحُ الدَّهْرُ بِهَا مِنْ بَعْدِ ضَنْ
ارْضِينَا بِشَنِيَاتِ اللُّوَى عَنْ زُرُودٍ يَالَهَا صَفْقَةُ كَغْنٍ

وقد ينكر الشاعر على الحماسة ان تشكو الفراق ، وهي كثيرة الالاف ،
وحالية بالطوق والحضاب ، كقول ابن سنان صاحب الابيات السالفة :

وهاتفه في البان تملي غرامها علينا وتتلو من صبايتها صحنفا
عجبت لها تشكو الفراق جهالة وقد جاوبت من كل ناحية النفا
ويشجي قلوب العاشقين حنينها وما فهموا مما تغنيت له حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الاسى لما لبست طوقا ولا خضبت كفتا

ولكن الارجاجاني يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر انها مزقت اثواب الحيداد ،
وان صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الاطواق وانها نزفت دمعها وافنته
بطول البكاء ، وذلك في قوله :

ومما شجاني وقد ودّعوا بكاء الحمام على ساقها
تنوح على يُعد الألفها وتظهر مكنون اشواقها
لبسن حداداً ومزقته فلم تدخر غير ازياقها
وضاقت صدوراً بأنفاسها ففضت مجامع اطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها فلم يبق ماءً بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان ، ويظهر انهم لم يتمتعوا
بأعانيه الجميلة على ضفاف النيل في سينتريس ، والدهر كله فداء للحظة واحدة
من الاصائل ، او العشيات ، او الاسحار ، في مغاني سنتريس .

ويمجيني في وصف الكروان قول الاستاذ عباس العقاد :

يا بحيمى الليل البهيم تهجداً والطير آوية الى الاوكان
يحدو الكواكب وهو اخفى موضعاً من نايف في غمرة النسيان
قل يا شبيه النابغين اذا دعوا والجهل يضرب حولهم بجران

كم صبيحة لك في الظلام كأنها
خفاقة النغمات تطفر في الدجى
هن اللغات ولغات سوى التي
إن لم تقيدها الحروف فإنها
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى
إني لأسمع منك إذ ناديتني
اصفي اليك إذا هتفت وفي يدي
شعر الطيور ولا رياء يشوبه
ياساليا يشكو ويصدق وحده

دقات صدر للدجنة حان
فوق النسائم طفرة النشوان
رُفعت يهن عقيرة الوجدان
كالوحي ناطقة بكل لسان
بث الحزين وفرحة الجذلان
معنى يقصر عنه كل بيان
سفر يغرد صامت الأوزان
يذرى بيدع قصائد الإنسان
علم سميرك راحة السلولان

ومن خير ما وصفت به الحمامة من ناحية الخليفة الجميلة ، قول بعض الاعراب :

وقبلي أبكي كل من كان ذا هوّى
وهن على الأطلال من كل جانب
مزبرجة الأعناق غر ظهورها
ترى طرراً بين الخوافي كأنها
ومن قطع الباقوت صيغت عيونها

هتوف البواكي والديار البلاقع
نوائح ما تخضل منها المدامع^(١)
مخطمة بالدر خضر روائح^(٢)
حواشي برد زينتها الوشائع^(٣)
خواضب بالحناء منها الأصابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان القسافي لطائر مغرد ضم أفراخه اليه :

أعدهن الحاناً على سمع مُعرب
وطر غير مقصوص الجناح مُرفها
مخلّى وأفراخاً بوكرك فوما
ألا ليت أفراخي معي كن نوما

يطاوح مرتاحاً على القُضب مُعجبا
مُسوّغ أشاتِ الحبوب مُنمعا
ألا ليت أفراخي معي كن نوما

وقد أبدع الرصافي شاعر الاندلس حين تغنى يوماً من أيام شبابه وقد خلا
فيه بن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكنها غير الهديل ، وأبياته الآتية غاية

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون

(٢) مزبرجة : من الزبرج وهو الزخرف . ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر

(٣) الوشائع جمع وشيبة وهي الطرائق في الثوب

من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجزج للغروب :
 وعشي رائق منظره قد قطعناه على صرف الشمول
 وكان الشمس في أنثائه ألصقت بالأرض خذاً للزول
 والصبا ترفع أذيال الرها ومحيتا الجو كالسيف الصقل
 حبذا منزلنا مغتبقاً حيث لا يطرقنا غير الهديل
 طائر شادٍ وغصن مننٍ والدجى تشرب صهباء الأصيل
 ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي أبي حفص القرطبي :
 هم نظروا الواحظها فهاوما وتشرب لب شارها المدام
 يخاف الناس مقتلها سواها أيدع قلب حامله الحسام
 سما طرفي إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمام
 وأكر قدما فأنوح وجداً على الأغصان ينتحب الحمام
 وأعقب بينها في الصدر غماً إذا غربت ذكاء أتى الظلام



التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب إلى حبيبه دمع مسفوح ، وقلب مجروح ووجد
مشبوب ، وصبر مغلوب !! والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف تغزى به قلوب
الحسان ، ومن طريقه قول الأبيوردي :

أشكو الهوى لترقي يا أميمة لي فطالما رفق المشكوى بالشاكي
يشقى بعضي ببعضي في هواك فما للمين باكية والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب : فهم يرون بكاء العين من فضل حزن
الفؤاد ، حتى ليقولون : نعمت العين ، وشقى القلب ، ولكن الأبيوردي عكس
المعنى ، فجعل نعيم القلب في الهوى ، وعذاب العين في البكاء ، ثم قال :

إن يعبك ثغرك دمع حين أسفحه فإنني جدت للمحكي بالحائي
ما كنت أحسب أن الدر مسكنه يكون جيدك أو عيني أو فاك
وأوضح من هذا وأجل قول الشريف :

أهون بما حملتني من الضنى لو أن طيفك كان من عوادي
ولقلما زار الخيال بمقلة روعاء نافرة بغير رقاد
ما تلتقي الأجفان منها ساعة وإذا التقت فلغض دمع باد
لا يبعدن قلبي الذي خلفته وقفاً على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وساده لم يدر كيف نبا علي وسادي
ولقد بعثت من الدموع اليكم بركايب ومن الزفير بحادي
ولا هواك لما ذلت وانما عزّي يعيرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية ، والذلة العذرية : فهو عزيز
ذليل !! وللبعثري حوار لطيف في هذا الباب ، فمن ذلك قوله :

صلي مغرمًا قدواتِ الشوقِ دمعتهُ سجاماً على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حَلَّتْهُ بِحِلَلٍ وليس الذي حرَّمَتْهُ بِحَرَامِ
وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال :

أُلامُ على هواكِ وليس عدلاً إذا أُحْبِبتُ مثلكِ أن ألاما
فقد حرَّمت من وصلي حلالاً وقد حَلَّت من هجري حراما

ولا يسعني وقد اسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء في أن
ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين
يقول :

أما استوجبت عيني فديتك نظرة اليك وقد أبكيتها حِجَجاً عشرا
لمعري لأن أقررت عيني بنظرة اليك لقد عذبتِها بالبكا دهرها
ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية :

جرى السيل فاستبكا في السيل إذ جرى وفاضت له من مقلتي غروبُ
وما ذاك إلا حين ايقنت انه يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أجاباً دونكم فاذا انتهى اليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيا ساكني اكفاف دجلة كلكم إلى القلب من اجل الحبيب حبيبُ

وقد تَلَطَّف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله :

يا موحش العين التي أنست بطول بكائها
غادرت بين جواني نفسي تموت بدائها
تشتاق عيني ان ترا ك وانت في سودائها
فاذا بخلت بنظرة سمحت بجمّة ماها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء :

وقلتُ شهودي في هواك كثيرةً واصدقها قلبي ودمعي مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها فدمعك مقدوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون ، لطول ما يبحثون في القذف
والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!



وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول :

يا اهل اسيوط لا زلتُم بعافيةٍ وإن تمرّدَ في وجدي بكم دائي
أسلمتموني لدهرى بعد ما بليتُ من قسوة الصدّة والتبريح احشائي
فلو أتت ظبيةُ الحمراء غازيةٌ قلبي لما وجدته غير اشلاء (١)
يا ويح نفسي ، اتنسوني واذكركم مُقرّح الجفن في صبح وامساء

إن الذين بأمر الحب قد ملكوا لم يثّقوا الحب في ضربي وايدائي
لم يُدنني الشوقُ يوماً من منازلهم إلا تولوا مع الأيام اقصائي
كم رُحّتُ احملُ آمالي لحبيهم وعدتُ احملُ آلامي وارزائي
يالوعة القلب لا شكواي نافعةٌ ولا بكاي بشافٍ مسّ ضرائي
أبيتُ اندب عهداً مرّ طيّبهُ كلمحة البرق في اعطاف ظلماء
وأرسل الزفرة الحمراء لافحةٌ كوقدة الجمر في آجام قصباء

يا من يعزّ عليّنا ان نجازهم صدّاً بصدّ واغضاءً باغضاء
لو ترحمون وصاتم شيئاً كلفاً ألقى جفاكم عليه ألف بأساء

(١) الحمراء : حي جميل من أحياء أسيوط

ثورة الوجد

نذكر هنا طرفاً من الشعر الموجد ، الذي يمثل ثورة الوجد ، ولوعة الأسى ،
فمن ذلك قول أبي تمام :

سقيمٌ لا يموتُ ولا يُفـيـقُ قد اقـرحـ جفـنـه الدـمـعُ الطـليـقُ
شديد الحزن يحزن من يراهُ اسير الصبر ناظره أريقُ
فجميع صبايةٍ وحليف شوقٍ تحمّل قلبه ما لا يطيقُ
يَظـلُّ كأنه بما احتواهُ يُسـعـرُ في جوانبه الحريقُ

وأي حال ادعى للرحمة ، ووجب للإشفاق ، من حال هذا المحب السقيم ،
الذي لا يموت ولا يفيق . والذي يحزن من يراه : لصبره الاسير ، وناظره الأريق
والذي حالف في ضعفه الشوق ، وضاجع الصباية ، حتى لكأنه بما به ، تسعّر
النار في ضلوعه ؟ !

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خلانته :

لم يـسـتـرح مـن له عـيـنٌ مُؤـرـقـة وكيف يعرف طعمَ الراحةِ الأرقُ
محمّدٌ وعليٌ فتنا كـبـدي اذا ذكرتها والعيسُ تنطلقُ
خـلـانٌ حل بـقـلبي مـن فـراقـها ما كنت احذر منه قبلَ نفـتـرُ
قلبٌ رقيقٌ تلظت في جوانبه نار الصباية حتى كاد يحترقُ
وددتُ لو تم لي حـجـى بـقـربـها ما كلُّ ما تشتهيـه النفس يتفقُ

ومما يمثل ثورة الوجد في الصدر ، مع الفيظ مما جنت يد الليالي ، قول
المتنبي :

اكيداً لنا يابـيـنُ واصلتَ وصلنا فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو

اردّد ويلي ، لو قضى الليل حاجةً واكثر لهفي ، لو شفا غلّةً لهفُ
ضنى في الهوى كالسم في الشهد كامنًا لذذتُ به جهلا وفي اللذة الحثف
وكان الابيوردي يمثل وجده بوجد الطيبة تترك ولدها في طلب الكلا ثم
تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات ا واليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة :

وما لم ساجي الطرف مال به الكرى	على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تراعي باحدى مقلتيها كيناسها	وترمي بأخرى نحوه نظراً غرّبا
فلاح لها من جانب الرمل مرّتع	كأن الربيع الطلق ألبسه عصباً
فمالت اليه والحريص إذا غدت	به سورة الأطماع لم يحمد العقبى
وآنسها المرعى الخصب فصادفت	مدى العين في ارجائه بلداً خصبا
فلما قضت منه اللبنة راجعت	طلّاهما فالقته قضى بعدها تحباً
اتيح له عاري السواعد لم يزل	يخوض إلى اوطاره مطلباً صعباً
فولت على دعرٍ وبالنفس ما بها	من الكرب لا لقيت في حادث كرباً
بأوجد مني يوم عجت ركبها	لبين فلم تترك لذي صبوة لباً

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الامثال في الآداب القديمة ، وانما نسبناها إلى
الابيوردي لأنه يرددها في شعره ، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية :

وما مغزل تعطو الاراك يهوه	نسيم تناجيه الخائل وان ^(١)
وتزجي بروقيها أغن كأنه	من الضعيف يطوي الارض بالرسفان ^(٢)
فمال إلى الظل الاراكي دونها	وكانا به من قبل يرتديان
وصبت عليه الطلّس وهي سواغب	تجوب اليه البید بالئسلان ^(٣)
فمادت اليه أمه وفؤادها	هفاً كجنّاح الصقر في الخفقان
وظلت على الجرعاء ولهى كئيبة	وقد سال واديا بأحمر قان

(١) المغزل : ام الغزال ، الخائل جمع خيلة وهي ألفاف الشجر

(٢) الرسفان ، المشي في القيد

(٣) الطلّس ، الذئب . ولواغب ، الجياح . والتسلان ، مشي الذئب إذا أسرع

تسوف الثرى طوراً ويعبث تارةً بها اولق من شدة الولهان (١)
بأوجد مني يوم سرت إلى الحمى وقد نزلت سمراء سفع ابان (٢)

ونحب ان نلفت القارئ الى ما في امثال هذه الصور الشعرية من الكلف
بتصوير الطبيعة ، وما فيها من حياة الحيوان ، فقد اغرم شعراء الغرب بهذا
الاسلوب ، فزاد شعرهم جمالا إلى جمال . ولولا الرغبة في الایجاز لنقلت قطعة
من شعر (ألفريد دي ميسيه) تماثل شعر الابيوردي في هذا الجانب من البيان .
والناس هم الناس ، في كل قطر ، وفي كل جيل ، والتباين قليل في الميول ، وفي
تذوق الوان الحياة ، وان عظم الفرق حيناً في التعبير عن نزعات النفوس ،
وشهوات العقول .

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون ، وقد رأينا ان
نثبتها هنا كاملة — كما فعل المقرري صاحب نفح الطيب — لأنها ذكرت مفرقة في
اكثر المؤلفات :

اضحى التنائي بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم	حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
ان الزمان الذي قد كان يضحكنا	انسا بقرهم قد عاد يبيكنا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا	وانبت ما كان موصولا بأيدينا
بالأمس كنا وما يخشى تفرقنا	فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نعتب اعاديكم	هل نال حظا من العتبى اعاديننا (٣)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم	رأيا ولم نتقلد غيره ديننا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه	وقد يئسنا ، فما لليأس يقرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جواحننا	شوقا اليكم ولا جفت ما قينا

(١) تسوف ، تشم . الاولق ، الجنوب

(٢) أبان ، جبل شرقي الحاجر فيه نحل

(٣) اعتبه ، ارضاه . والعتبى ، الترضية

نسكاد حين 'تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الاسى، لولا تأسينا (١)
 حالت لبعدكم أيامنا ففقدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
 إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
 ولما هصرنا فنون الوصل دائيةً قطوفها فجئنا منه ما شينا
 ليسق عهدهم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رباحينا
 لا تحسبوا نايكم عنا يُغيرنا إذ طالما غير النأي المحبيننا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

يا ساري البرق غاد القصر فاسق به من كان صريف الهوى والود يسقيننا
 واسأل هنالك هل عنى تذكرينا إلفاً تذكره أمسى يعنيننا (٢)
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حياً كان يحميننا
 وبیت 'ملك' كآب الله أنشأ مسكاً وقد أنشأ الله الورى طيننا
 أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسيننا (٣)
 إذا تأود آدته رفاهيةً تدمي العقول وأدمته البرى ليننا (٤)
 كانت له الشمس ظيئراً في تكلله بل ما تجلى بها إلا أحاييننا (٥)
 كأنما نبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويناً وتزيننا
 ما ضران لم نكن اكفاءه شرفاً وفي المودة كافٍ من تكافينا (٦)
 يا روضة طالما اجنت لواحظنا ورداً جناء الصبا غصاً ونسريننا
 ويا حياة تملأنا بزهرتها منى ضروباً ولذات افانينا (٧)
 ويا نعيماً خطرنا من نضارته في وشي نعيم سحبتنا ذيله حيننا
 لسنا نسيمك إجلالا وتكرمةً فقدرك المعلى عن ذاك يُغنينا

(١) التأسى ، التعزي (٢) عناء ، اشقاء (٣) ورق ككتف ، الفضه
 (٤) تأود ، تشى ، آدته ، أثقلته ، البرى ، الخلاخيل (٥) الظن من معانيه جانب القصر
 (٦) متكافى ، التكافؤ والتأثر (٧) تملأنا ، تمتعنا

إذا انفردت وما شورك في صفةٍ فحسبنا الوصف ايضاحاً وتبييناً

ياجنة الخلد أبدلنا بستسلسلها
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
سران في خاطر الظلماء تكتمنا
لا غرو في ان ذكرنا الحزن حين نهت
إنا قرأنا الاسى يوم النوى سوراً
أمّا هواك فلم نعدل بمشربه
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ولا اختياراً تجنبناك عن كذب
نأسى عليك إذا حثت مشعشة
لا أكؤس الراح تبدي من شائلنا
دومي على العهد ما دمنا محافظة
فما استعضنا خليلاً عنك يحسنا
ولو صبا نحونا من أفق مطلع
أولي وفاء وإن لم تبدلي صلة
وفي الجواب شفاء لو شفعت به

والكوثر العذب زقثوماً وغسلينا
والسعد قد غص من اجفان واشينا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
شرباً وان كان يروينا فيظميننا^(١)
سألين عنه ولم نهجره قالينا
لكن عدتنا على كسره عوادينا^(٢)
فينا الشمول وغنانا مغنينا
سما ارتياح ولا الاوتار تلهنا
فالحر من دان إنصافاً كما دينا
ولا استفدنا حبیباً منك يفنينا
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيينا
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
بيض الايادي التي ما زلت تولينا

وقد أغرم الشعراء بتخميس هذه القصيدة ، وتسديسها ، وتشطيرها :
وكذلك شغلت الاذهان زمناً غير قليل . وقد ارسل ابن زيدون هذه القصيدة
إلى معشوقته ولادة ، وهي سيدة اندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الامويين ،
وقد كانت في جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكتم السر
وبي منك ما لو كان بالفجر لم يلح وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر
ولابن زيدون في ولادة مقطعات حسان ، كقوله :

(١) الشرب بكسر الشين كالشرب وهو المورد (٢) عن كذب ، عن قرب

واهاً لعطفك والزمان كأنما
والليل مها طال قصر طوله
أما منى نفسي فأنت جميعها
يُدني مثالك حين شطّ به النوى
ومن موجع الشعر قوله :

بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت
ولصديقنا الاستاذ انيس ميخائيل
إني ذكرتكَ بالزهراء مشتاقاً
وللنسيم اعتلال في أصائله
والنهر عن مائه الفضي مبتسم
يوم كأيام لذات لنا انصرمت
نلهو بما يستميل العين من زهر
كان أعينه إذ عاينت ارقى
وردت تالت في ضاحي منابته
سرى ينافحه نيلوفر عبق
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
لا سكّن الله قلباً عن ذكركم
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا
كان التجازي بحض الود مُد زمن
فالآن احمد ما كنا لعهدكم
واني لفتون بهذا الشطر الحزين :

سلوتم وبقينا نحن عُشاقا

فانه يمثل المحب ، وقد سلا احبابه ، وبقي وحده يعاني آلام الوجد ، واهوال

الصدود .

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديماً وحديثاً طول الليل بعد الفراق ، وعند الهجر والصدود .
فمنهم من يستنجد بمحبوبه ، ويستعديه على وحشة الليل ، ومضاضة الارق ،
كقول الابيوردي .

أُمِّسِمَ إِنْ خَفِيتْ عَلَيْكَ صَبَابِي فَسَلِّي ظِلَامَ اللَّيْلِ كَيْفَ أَكُونُ
وَاسْتَخْبِرِي عَنِّي النُّجُومَ فَقَدْ رَأَتْ سَهْرِي وَأَرْوَقَةَ الْغِيَاهِبِ مُجُونُ
وَلَئِنْ أَذَلَّتْ مُصُونٌ دَمْعِي فِي الْهَوَى فَعَلَى الْبُكَاءِ يُعْوَلُ الْمُحْزُونُ

وهذه الابيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد ، وعبثه بكرائم
النفوس . ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم ان يحدثوه عن النهار ، أو
يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسي النهار ، وأوصاف النهار ، كما قال ابن
الأحنف :

أَيُّهَا الرَّاقِدُونَ حَوْلِي أَعِينُوا فِي عَلَى اللَّيْلِ حَسْبَةً وَانْتَجَارَا
حَدِّثُونِي عَنِ النَّهَارِ قَلِيلاً أَوْصِفُوهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا

وابن الاحنف يحميد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول ، فمن ذلك
قوله :

نَامَ مِنْ أَهْدَى لِيَ الْأَرْقَا مُسْتَرْحِجاً سَامِنِي قَلْبَا
لَوْ يَبِيتُ النَّاسُ كُلُّهُمْ بِسَهَادِي يَبِضُّ الْحَدَقَا
أَنَا لَمْ أَرْزُقْ مَوَدَّتِكُمْ إِنَّمَا لِلْعَبْدِ مَا رُزِقَا
كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشَ بِهِ فَاصْطَلَى بِالْحُبِّ فَاحْتَرَقَا

وتوجعني شكواه في قوله :

أنا لم أرزق مودتكم إنما للعبد ما رزقا

فقد تكلف النفس بفتنة من فتن الحسن في هذا الوجود ، ثم لا تجسد إليها
السبيل ، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال !
ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل ، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه .
كالبحثري حين يقول :

أمولةً بالبين ربّ تفرّق
ولي لوعة تستغرق الهجر والنوى
على أن قلبي قد تصدع شمله
ظعائن أظعن الكرى عن جفوننا
جرحت به قلباً بحبك مولعا
جميعاً وحبّ يُنفد الدمع اجمعا
فنونا لشمل البيض حين تصدعا
وعوضنا منه سهاداً وأدُما
نورين النوى ثم استجبين لهاتف
وحاولن كتمان الترحل بالدجى
من البين نادى بالفراق فأسمعا
فتمّ بهن المسك حين تضيوعا

وقد يفزع المحب إلى تحكيم العدل والحق ، حين تطول لياليه . كقول ابن
الرومي :

أيا شمسَ النهار سنا وعِزاً
أحلّ أن تنامي عن سهادي
أميز كل شيء من اموري
غرسست هوّى فربيّه بحفظي
يقصر عنهما نظرك ولمس
ولي مذبان عني النوم خمس
سوى امري لديك ففيه لبس
فليس يُربّ بالتضييع غرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر أن نجومه اقسمت لا تزول .
كقول احدهم :

ألا هل على الليل الطويل مُعين
أكابد هذا الليل حتى كأنما
ووالله ما فارقتكم قالياً لكم
ولكن ما يُقضى فسوف يكون
إذا نزحت دارٌ وحن حزين
على نجمه أن لا يغور يمين
على نجرته دارٌ وحن حزين

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سراويل الليل ، وظهور تباشير
الصبح ، كقول حندج بن حندج :

في ليل صول تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول

لا فارقَ الصبحَ كفي إن ظفرتُ به وإنت بدت غرةً منه وتحجبلُ
لساهرٍ طال في صولٍ قملُه كأنه حيةٌ بالسوطِ مقتول
مقَى أرى الصبحَ قد لاحت مخائلُه والليل قد مُزقت عنه السراويل
ليلٌ تحيّر ما ينحطُّ في جهةٍ كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركدٌ ليست بزائلةٍ كأنما هُنَّ في الجوِّ القناديل
ما أقدر الله أن يُدني علي شحطَ من داره الحزن من داره صول
الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول

نعم وما أقدر الله أن يدني علي النوى من داره سينتريس من داره أسيوط
لوددتُ إذ سكنوا هنالك دارهم وعدتهم عنا أمورٌ تشغلُ
أنا نطاع إذن فتقلُّ أرضنا أو انت أرضهم إلينا فتقل
وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال :

ربّ ليلٍ كأنه الدهر طولاً قد تناهى فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشيب ب ليست تزول لكن تزيد

قال أبو بكر الوليد بن البراز : كان علي بن الجهم يستنشدني كثيراً شعر
خالد الكاتب فأنشده فيقول : ما صنع شيئاً . ثم أنشدته يوماً قوله :

رقدت ولم ترثٍ للساهر وليلُ الحبِّ بلا آخرٍ
ولم تدر بعد ذهاب الرُّقا دِ ما صنع الدمع بالناظر

فقال : قاتله الله ! لقد ادمن الرّمية حتى اصاب الغيرة ! وجهال هذا الشعر
يرجع إلى شكوى الحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم . ومثله قول أبي
الغضائفة :

أمسى ببغداد ظيُّ لست اذكره إلا بكيتُ إذا ما ذكره خطراً
إن الحب إذا شطت منازلُه عن الحبيب بكى أوحنّ أو ذكره
ياربّ ليلٍ طويل بتُّ أرقبُه حق اضاء عمود الصبح فأنفجرا
ما كنت احسب إلا مُذ عرفتمكم ان المضاجع مما يُنبِتُ الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب على عين الشجيِّ إذا ما نومه نفرا

ومن المحبين من يخاطب الليل . فيذكر في خطابه ان بعض ما به كاف لمحو
الليل لو عَرَضَ له . كقول سعيد بن حميد :

يا ليل بل يا أبدُ أنائمُ عنك غدُ
يا ليلُ لو تلقى الذي ألقى بها أو تجدُ
قصير من طولك أو ضعف منك الجلدُ
أشكو إلى ظالمة تشكو الذي لا تجدُ
وقف عليها ناظري وقف عليها السهدُ

واود لو تنبه القاريء إلى حسن هذا البيت :
أشكو إلى ظالمة تشكو الذي لا تجدُ

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال :
يقولون طال الليل والليل لم يطل ولكن من يبكي من الشوق يسهر
وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال :

لم يطل ليلى ولكن لم انم ونفى عني الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودي لنا خرجت بالضمت عن لا ونعم
نفسى يا عبداً عني واعلمي اننى يا عبداً من لحم ودم
إن في بُردى جسماً ناعلاً لو توكت عليه لانهدم

وقد ردد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال :

طال هذا الليل بل طال السهر ولقد اعرف ليلى بالقيصر
لم يطل حتى جفاني شادن ناعم الاطراف فتان النظر
لي في قلبي منه لوعة ملكت قلبي وسمعي والبصر
وكان الهم شخص مائل كلما ابصره النوم نفر

على ان بشاراً يتخطى هذا الحد ، فيجاري الشعراء ، ويحسب ان ليس لليلة
نهار ، وذلك في قوله :

أقول وليلى تزداد طولاً أما ليل بعدهم نهارُ
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصارُ

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الادبية ، لان الغمض لا يحفو العيون ،
لقصر الجفون ، كما يقول . وانما يحفوها لثورة الوجد ، وهجمة الاشجان !

ويقول في كلمة ثانية :

خليلي ما بال الدجى لاتزحزحُ وما لعمود الصبح لا يتوضحُ
اضلّ النهار المستنير طريقه ام الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال علي الليل حتى كأنه بليدين موصول فما يتزحرح

والبيت الاخير يذكرني بقول صاحب البدائع :

وجنّ علي الليل حتى حسبته جفاء كريم او رجاء لثيم

وان كان هذا في الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله

وتروقي البساطة في قول سويد بن ابي كاهل :

وإذا ما قلت ليلٌ قد مضى عطف الاول منه فرجعُ
يسحب الليل نجوماً ظلماً فتواليها بطينات التبع

والخيال هنا خيال بادية . ولكنه في بداوته بديع . وقول الآخر :

سوا مضجعي هل قرّ من بعد بعدكم وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمان ونتمم بمابل فيا لعيون ما وفّت لعيون

وهو يذكرني بقول بعض الاعراب :

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ولا ساغ لي بين الجوانح ريق
إذا زفرات الحب صعّدن في الحشا كررن فلم يُعلم لهن طريق

ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال قول عبد

الرحمن بن هشام :

طال عمر الليل عندي مذ قولمت بصدي
يا غرالا نقض العهد ولم يوف بوعد
انسيت العهد اذبت لنا على مفرش ورد
واجتمعنا في وشاح وانتظمتنا نظم عقد

ونجوم الليل تحكي ذهباً في لازورٍد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول ابن زيدون :

يا ليل طلّ لا اشتهي إلا لعهدي قصرك
لو بات عندي قري ما بت ارعى قرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق ، شبهة الورود ، وما احسب المصريين
عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس ، ذات الظلال
والافئنان .

ليالي النيل واللذات ذاهبة
لو يرجع الدهر لي منكن واحدة
لذت تبين دهري كيف يرحمني
من ظلم ممي ومن عدوان احزاني

وقد اجاد شعراء العصر وصف الارق في الليل الطويل . فمن ذلك قول
شوقي :

بدأ الطيف بالجميل وزادا
تخذ من الجفن والفؤاد سبيلا
انت ان بت في الجفون فاهل
دار والحرب بين جفني ونومي
سألني عن النهار جفوني
قلن نكيه قلت هاتي دموعاً
يا ليالي لم اجدك طوالاً
إن من يحمل الخطوب كباراً
لم نفق منك يا زمان فنشكو

يا رسول الرضا وقيت العثارا
وتيمم من السويداء دارا
عادة النور ينزل الابصارا
قد اعدت الدجى لها اوزارا
رحم الله يا جفوني النهارا
قلن صبراً فقلت هاتي اصطبارة
بعد ليلى ولم اجدك قصارة
لا يبالي بحملن صغارا
مدمن الحمر ليس يشكو الخمارا

وقال حافظ :

سكن الظلام وبات قلبك يخفق
حار الفراش وحيرت فيه فأنتما
درج الزمان وانت مفقود المتى
وسطا على جنبك هم مقلق
تحت الظلام معذب ومؤرق
ومضى الشباب وانت ساه مطرق

وقال القايائي :

جنّ الظلام فما يزاح
ليلٌ كأنّ نجومه
يا من اتّاح ليّ الاسى
قلبٌ اساه لاعج
يا ويلتا اين الصباح
يطلعن في كبدي جراح
بردُ الفؤاد متى يتاح
لولا تحجّبه لفاح
حُوحاجتي ليست تباح
ما بال دمعِي يُستبا

وقال العقاد يخاطب الليل :

طوَيْتَ أَزْمَةَ الاجساد منا
فما تدري أتكُن حين مالت
وما تدري ابانت في جحيم
وما تدري ايسمع في دجائها
عقدت من الكرى وطناً رفيقاً
تضيق به الوسائد والحشايا
وحيدٌ لا يقاربه بعيدٌ
فيا وطن النيام بكل فج
ويا سكن الاحبة والاعادي
ويا دار السلام بأي سد
لئن هجعت بساحتك المآقي
كأن جموعهنّ سباع ليل
فهل عند الظلام لنا حديث
ام ادخر الظلام لنا متاعاً
سهرنا يا ظلام فلم يصبنا
ولا حلّة فيها تلاقي
فدانت وانطوت عنك القلوب
إلى تلك المضاجع ام تجوب
ام الجنات مرتعها الخصب
هتافٌ للبلابل ام نعيم
وكل مسهّد فيه غريب
وتلفظه المسالك والدروب
ولا يدري بلوعته القريب
أمن حرجك بك السهّد المريب
أليس بساحليك لنا نصيب
يصدّ الطرف مربك الرحيب
لما هجعت بساحتك الخطوب
تبیت على فرائسها تلوب
يحاذر ان يُلم به رقيب
يضمّ بالحمّ الحلم الكذوب
على طول المدى إلا الشحوب
سواد القلب والطرف الكئيب

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد يشجيك حين ينظر
إلى نفسه فيحسبها من اليأس امست وهي خراب ينعب على اطلالها اليوم. وانظر
كيف يقول :

وناعبة صاحت وللليل هجعة
 لقبحت من عمياء تقرأ في الدجى
 فقلت على النفس التي سوف تغتدي
 تجوس أفاعي الحزن في جنباتها
 فلا تحسبن اليوم تنعى المغنيا
 وكم وحشة للنفس يخشى اقتحامها

وما أجمل قوله في هذه القصيدة :

ولما تقضى الليل إلا أقله
 فأقبل يرعاني ويبكي وربما
 وزحزحني عنه بكف رفيقة
 يقول لقد ران الكرى وتفرقت
 فقلت وكم من ليلة إثر ليلة
 فهب لوداعي من رقادك ليلة
 واسلمت كفي كفهُ فأعادها

وحان التناي جشت بالدمع باكيا
 بكى الطفل للبكي وإن كان لا هيا
 وأسبل اهداب الجفون السواحيا
 نجوم الدجى والديك اصبح داعيا
 سهرت وقد أمسيت وحدك غافيا
 تمر فاني وقد وهبت حياتيا
 وقلبي ! فهل أرجع القلب ثانيا ؟



الطبيعة في انفس الشعراء

لقد اكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة ، حتى لتحسب ان ذلك سمة من سماتهم ، لا يشار كهم فيها احد من العالمين .

ونريد ان نبين في هذه الكلمة ان شعراء العرب وردوا هذا المنهل ، ونقعوا صدام بمائه العذب الفرات ، فان الطبيعة ملك للجميع العيون ، في جميع الاقطار والشعور بها ، والجنوح اليها ، من حاجات الفطرة ، التي تسوي بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع حولها شتى العواطف والاهواء .

ونحن نعلم ان شعراء الغرب اكثروا من وصف السحاب : إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، وإذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدوي الرعد . ولمع البرق . على ان شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب . ويكفي ان نذكر قول البحري يصف سحابة :

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ بجرورةٍ الذليل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغير وجدٍ لها نسيمٌ كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الاسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتشار العِقد
فراحت الارض بعيش رغدٍ من وشي انوار الربى في بُرد
كأنما عُذرانها في الوهد يلعبن من حبايها بالنرد

ومن اظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة ، وإخلاصهم إلى مواردها

الشهية انهم يقرنون الحنين إلى معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوح السمات .
واليك قول الشريف :

أمعاهد الاحباب هل عودٌ إليّ مفدّى نبيلٌ به الجوى ومراح
يكفيك من انفسنا ودموعنا ان تُطيري من بعدنا وتراحي
فلربّ عيش فيك رقّ نسيمه كالماء رقّ على جنوب بطاح
وتغزل كصبا الاوائل ايقظت ربّا نُخرامى باللوى واقاح
كم فيك من صاحبي الشائل مُنتش بالدّل او مرضى العيون صيحا
فسقى اللوى صوب الغمام ودرّه وسقى النوازل فيه صوب الراح

وقد يقوى شعورهم « بشخصية » الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلك الدائر ،
وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحري :

أناةً أيها الفلك المدارُ انهب ما تصرّف امُجبارُ
ستفنى مثل ما تُفنى وتبلى كما تبلى فيدرك منك ثار
تُتاب النائبات إذا تهاوت ويدمر في تصرفه الدمار
وما اهل المنازل غير كبر مطاياهم رواحُ وابشكار
وانظر قول ابي القاسم ابن هانيء :

تفنى النجوم الزهرُ طالعةً والنيران الشمس والقمر
ولئن تبدّت في مطالعها منظومة فلسوف تنتثرُ
ولئن سعى الفلكُ المدار بها فلسوف يُسلمها وينفطر

وانظر قول العتابي في وداع جارية له :

ما غناء الحذار والإشفاق وشآبيب دمعك المهرق
ليس يقوى الوجد منك على الوج ولا مقلتنا طليح المآقي
غدرات الايام منتزعاتُ ماجنينا من طول هذا العناق
إن قضى الله ان يكون تلاقٍ بعد ما تنظرين كان تلاقٍ

هوئي ما عليك واقنبي حياءَ لست تبقي لي ولست بباقي
 أيثنا قدمتُ صروف المنايا فالذي اخرت سريع اللحاق
 غرَّ من ظن ان تفوت المنايا وعراها قلائد الاعناق
 كم صفيين مُتعا باتفاق ثم صارا لغربة وافتراق
 قلت للفرقدين والليل مُلقٍ سودَ اكنافه على الآفاق
 ابقيا ما بقيتا سوف يُرمى بين شخصيكما بسهم الفراق
 وانما قلت « شخصية الطبيعة » لأدل القارئ على مبلغ ما سما اليه العرب
 حين كلفوا بالنظر إلى الوجود ... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار
 وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بأي . كرهت النار حق أبعدت فعلت ما معنك في إبعادها
 هي ضرة لك في التمتع ضيائها وهبوب نفحتها لدى إيقادها
 وارى صنيعة في القلوب صنيعةا بسيالها واراكها وعدادها
 شركتك في كل الامور بفعلها وضيائها وصلاحها وفسادها
 ولينظر القارئ نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب :

انزعني الوشي فهو يسترحسناً لم تحزه برقمم الثياب
 ودعيني عسى اقبل ثغراً لذ فيه للمي وطاب الرضاب
 وعجيب ان تهجريني ظلماً وشفيعي إلى صباك الشباب

فلما نجده تخطى كل الاسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء اغراضهم ، ثم
 هجم على المعنى واخذ بنواصيه ، حين قال « وشفيعي إلى صباك الشباب » ولم
 يقل : وشفيعي الى صباك حبي وهيامي ، ووجدني وغرامي ، وخشوعي
 وخضوعي . إلى آخر ما يقول المتيمون !
 وانظر قول محمد البطليوسي :

غصبوا الصباح تقسموه خدودا واستنهبوا قصب الاراك قدودا
رأوا حصاليا قوت دون محلم فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حديق المها اجفانهم فسبوا بهن ضراغما واسودا
لم يكفهم حمل الاسنة والظبا حتى استعانوا اعينا ونهودا
وتضافروا بصفائر أبدت لنا ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الاقاحي بينها ماء الحياء لو اغتدى مورودا

ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على احد ما فيه من
سمو الخيال .

وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون ، وكمون الموت في السيوف . في
قول السري الرفاء :

بنفسي من اجود له بنفسي ويبخل بالتحية والسلام
ويلقاني بعزة مستطيل وألقاه بذلة مستهام
وحثني كامن في مقلتيه كمون الموت في حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية فكأنما
يريدون ان يشرخوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم . وهذا في ذاته ملحظ بديع .
ولننظر قول صرّدر :

يقول خليلي والطباء سوانح أهذي التي تهوى ؟ فقلت نظيرها
لئن اشبهت اجيادها وعيونها لقد خالفت اعجازها وصدورها
فيا عجباً منها يصدئ انيسها ويدنو على ذعر الينا نفورها
وما ذاك إلا ان غزلان عامر يثقن بأن الزائر ينصقورها
ووالله ما أدري غداة نظرننا اقلك سهام أم كؤوس تديرها
فإن كن من نبل فأين حفيفها وإن كن من خر فأين سرورها
أيا صاحبي استأذنا لي بخمرها فقد أذنت لي في الوصال خدورها
هبأها تجافت عن خليل يروعها فهل انا إلا كالخيال يزورها
وقد قلت لي ليس في الارض جنة اما هذه فوق الركائب حورها

فلا تحسبي قلبي طليقاً فإنما له الصدر سجنٌ وهو فيه أسيرها
 أراك الحمى قل لي بأي وسيلة وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
 وإن فروع البان من أرض بيشة حبيبٌ إليّ ظلّها وحرورها
 ألدُّ من الورد الجنيّ عرارها واحلى من الشهد المصفى بريرها
 على رسلكم في الحب إنا عصابة إذا ظفّرت في الحب عفّ ضميرها

ولسنا بصدّد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر إلى
 الطبيعة ، فإن هذا باب طويل . وإنما نشير فقط إلى أن الناس سواء
 في الإحساس بمظاهر الوجود . وإنما يختلفون في طرائق التعبير ،
 وأساليب البيان .



مدارة الرقباء

للعشاق اساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة . فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم . كقول ابن المعتز :

اردُّ الطرف من حَذري عليه وارصد غفلة الرقباء عنه
وامنحه التجنُّب والصمودا لتسرق مقلتي نظراً جديداً
وكقول السري الرفاء :

ونواظري وجد المحب فتورها ما كان هذا البين اول جمرة
لولا مساعدة الدموع ودفعها وانا الفداء لمن مخيلة برقه
وإذا ما الوشي صين أذاله قمرٌ إذا ما الوشي صين أذاله
خفيرُ الشائل لو ملكك عناقهُ ضعفتُ معاقد خصره وعهوده
ادنو الى الرقباء لا من حبيبهم
وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العميري :

أيا فحلة مَرَّانَ هل لي اليكما على غفلات الكاشحين سبيلُ
أمنيكما نفسي إذا كنت خالياً ونفعكما إلا العناء قليل
وما لي شيءٌ منكما غير انني أمني الصدى ظليكما فأطيل
ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة . كقول احد الشعراء :

تبدّل هذا السّدر اهلا وليتني أرى السدر بعدي كيف كان بدائلهُ

(١) الحوباء : النفس (٢) أذاله : أهانه

وعهدي به عذب الجنى ناعم الذرى
فما لك من سدرٍ وفحن نجبه
كالو وشى بالسدر واش رددته
وكقول كثير :

فيا عزّ إن واشٍ وشى بيّ عندكم
كما لو وشى واشٍ بعزةً عندنا
وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما ادعوا من سلوانه ، كقول أبي حية
النميري :

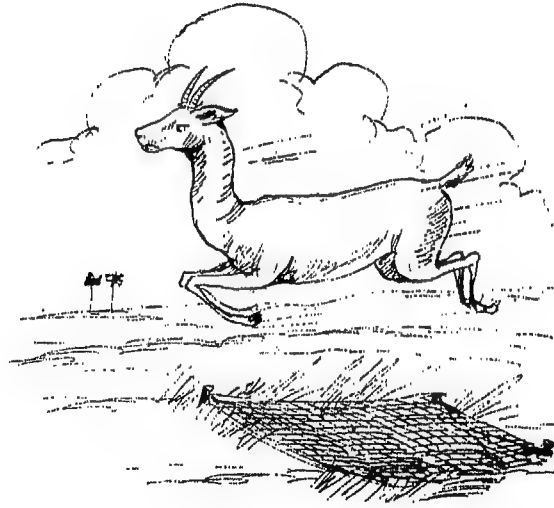
وخبرك الواشون ان لن احبكم
وإن دماً لو تعلمين جنيتيه
اصد وما الصد الذي تعلمينه
حياءً وتقياً ان تشيع نيمته
بلى وستور الله ذات المحارم
على الحيّ جاني مثله غيرُ سالم
عزاءً بنا إلا ابتلاع العلاقم
بنا وبكم ، أفٍ لأهل النائم

ومن المعذبين من يشجيه ان لا ينفع العذل عنده ، في حين ان من يهواه يأتمر
بأمر الوشاة . ويسمع نصيح اللاتين .
فمن ذلك قول الابيوردي :

رمتني بسهم راسه الكحل بالردى
مريضة ارجاء الجفون وانما
فولت وقد أبقت بقلبي علاقة
وقلت لأدنى صاحبي وقد وشى
ذرا اللوم اني لست أريك مسمعي
وليت لساناً ارهف العذل غربه
أردّ عذولي وهو يحضني الهوى
ويعتادني ذكر العقيق واهله
تنوح وتبكي فوق افنان أيكه
ولولا تباريح الصبا لم أبلّ
واقتل الحاظ الملاح كحيلها
أصح عيون الغانيات عليها
تمر بها الايام وهي مقيلها
بسري دمعني إذ تراءت محولها
فتلك هوى نفسي وانت خليلها
على الصب مفلول الشباة كليها
بغيط ، ويحظى بالقبول عذولها
بحيث الحمام الورق شاد هديلها
فداهن من أرض العراق نخيلها
بكاهها ولا اذرى دموعي عويلها

ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة ، قول الرصافي الاندلسي في غلام حائك :
 قالوا وقد اكلوا في حبه عذلي لو لم تهم بمُذال القدر مبتذل
 فقلت لو كان امري في الصباة لي لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لي
 علقته حبيبي الثغر عاطره حلو اللمى ساحر الاجفان والمقل
 غزير لم تزل من الغزل جائلة بنانه جولان الفكر في الغزل
 جزلان تلعب بالحواك اتمله على السدى لعب الأيام بالاجل
 ضمًا بكفيه او فحصا بأخصه تخبط الظبي في أشراك محتل

واحب لو تأمل القارئ هذه (الصورة الشعرية) التي تمثل هذا الحائك
 الجميل . بالظبي يتخبط في الأشراك . وانها لوثة من وثبات الخيال .



بخل الحسان

نذكر هنا طرفاً مما قال الشعراء في بُخل الحِسان : وكل حسناء بخيلة ، وهل
 جميل ضنين ! واشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيّار :
 يا لواء الدين عن ميسرةٍ والبخيلاتُ ما كنّ لئاما
 حملوا ريح الصبا نشركم قبل ان تحمل شيحاً وخزامى
 وابعثوا لي في الكرى طيفكم إن أذنتم لجفوني ان تناما
 ويحمل بنا ان نذكر قصيدة كثير التائية ، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة ،
 عند بخل الحبيب . وهي فوق ذلك غرة من غرر الآداب العربية . قال :
 خليلي هذا ربع عزّة فاعقلا قلو صيكنما ثم ابكيا حيث حلت
 وما كنت ادري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت
 فقد حلفت جهنماً بما لحرت له قرّيش غداة المأزمين وصلت
 أناديك ما حج الحبيج وكبرت بفيها غزال رُفقة واهلت
 وكانت لقطع الحب بيني وبينها كذاذرة نذراً فأوفت وحلت
 فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت (١)
 ولم يلق إنسان من الحب منعة تغم ولا غمّاء إلا تجلت (٢)
 كأنني أنادي صخرة حين اعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت (٣)
 صفوحاً فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت (٤)
 اباحت حتى لم يرعه الناس قبلها وحلت تلعالم تكن قبل لحلت (٥)

(١) ذلت هانت (٢) الميعة والغناء ، الشدة . وتجلت ، انصرفت
 (٣) العصم ، جمع أعصم وهو من الأطباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره
 أسود أو أحمر . وزلت : زلقت
 (٤) صفوح ، معرضة (٥) التلاع ، جمع تلة وهي ما ارتفع من الارض

فليت قلوصي عند عزة قيدت
وغودر في الحي المقيمين رحلها
وكننت كذي رجلين رجل صحيحة
وكنت كذات الظلع لما تحاملت
أريد الثواء عندها واظنها
فما انصفت اما النساء فبغضت
يكلفها الغيران شتمي وما بها
هنيئاً مريئاً غير داء نخامر
فوالله ما قاربت إلا تباعدت
فان تكن العتبي فأهلاً ومرحباً
وإن تكن الاخرى فان وراءنا
فلا يبعدن وصل لعزة اصبحت
اسيئي بنا أو احسنني لا ملومة
ولكن انيلي واذكري من مودة
فاني وإن صدت لائن وصادق
فما انا بالداعي لعزة بالجوى
فلا يحسب الواشون ان صمباقي
فأصبحت قد ابللت من دنف بها
فوالله ثم الله ما حل قبلها
وما مر من يوم علي كيومها
واضحت بأعلى شاق من فؤاده

بجبل ضعيف غر منها فضلت
وكان لها باغٍ سواي قبلت (١)
ورجل رمى فيها الزمان فشلت
على ظلمها بعد العثار استقلت (٢)
إذا ما اطلنا عندها المكث ملت
إلي وأما بالنوال فضنت
هواني ولكن للمليك استملت
لعزة من اعراضنا ما استملت
بصرم ولا اكثرت إلا أقلت
وحقت لها العتبي لدينا وقلت (٣)
منادح لوسارت بها العيس كلت (٤)
بعافية اسبابه قد تولت
لدينا ولا مقلية إن تقلت (٥)
لنا خلة كانت لديم فطلت
عليها بما كانت الينا أزلت (٦)
ولا شامت إن نعل عزة زلت
بعزة كانت غمرة فتجلت
كما ادنفت هياء ثم استملت (٧)
ولا بعدها من خلة حيث حلت
وان عظمت أيام اخرى وجلت
فلا القلب يسلوها ولا العين ملت

(١) بلت المطية : ضلت (٢) ظلع البعير : غمز في مشيه . واستقل : نهض من عثرته .

(٣) العتبي والاعتاب : الترضية (٤) المنادح : جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض .

(٥) تقلت : ظهرت بالقل وهو البغض . ومقلية : مبعوضة (٦) أزلت : أسدت

(٧) أبل من مرضه برىء منه . والدنف المرض . والهيماء : المريضة بالهيام وهو داء يصيب

الابل فلا تصبر على الماء .

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وطنت كيف ذلت (١)
واني وتهيامي بعزة بعدما تخلّيت مما بيننا وتخلت
لكالمرتبجي ظل الغمامة كما تبوأ منها للمقبل اضمحلت
كأنني واياها سحابة محل رجاها فلما جاوزته استهلّت (٢)
فان سأل الواشون فيم هجرتها فقل نفسُ حر سَلِمَتْ فتسلّت (٣)

ومن الشعراء من ينص على ان شح الحسان سماحة ، كالتهامي حين يقول :

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم فكأنهم كانوا بها ارواحا
ولقد عهدت بها فهل اريته مغدّى لمنتجع الصبي ومراحا
بالنافثات النافذات نواظراً والنافذين اسنةً وصيفاحا
وارى العيون ولا كأعين عامرٍ قدراً مع القدر المتاح مُتاحا
متوارثي مرض الجفون وانما مرض الجفون بأن يكن صحاحا
من كان يكلف بالأهلة فليزر ولدي هلال رغبة وبراحا
لا عيب فيهم غير شح نسائهم ومن السماحة ان يكن شحاحا
طرقتة في أترابها فجلت له وهنامن الغرر الصّباح صباحا
أبرزن من تلك العيون اسنةً وهززن من تلك القود ودرماحا
يا حبذا ذاك السلاح وحبذا وقت يكون الحسن فيه سلاحا

ويأسى ابن التعاويذي على ان يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد الكف .
وذلك قوله :

(١) الاعتراف : الاصطبار . وذلت : رضيت

(٢) محل : أصابه المحل وهو القحط

(٣) تلك هي تائبة كثير . ولقد كان بها جد مفتون . حتى انه سئل أنت أشعر أم جميل؟
فقال ، بل انا . فقل له : أتقول هذا وأنت راويته ؟ فقال : جميل يقول :

رمى الله في عيني بنينة بالقذى وفي الغر من انباها بالقوادح
وانا أقول :

نينا مريئاً غير داء مخامر لمزة من أهراضنا ما استحلّت

نأيت فحرمت الجفون على الكرى
 واعهد قبل البين قلبي يطيعني
 وما زال مطبوعاً على الصبر قلباً
 فما باله يوم النوى سار منجداً
 فليت طبيباً امرضتني جفونه
 وليت غريمي في الهوى وهو واجد
 ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن
 ولا بث في ابياتكم سائلاً فيرى
 أرجي جواد الكف عطف بخيلة
 وقبلك ما انهضت عزمي لحاجة
 واولى بثلي ان يكون مهاده
 وبني أنف ان اقتضي بسوى الظبي

واغريت دمع العين بالهملان
 ولكنه يوم الوداع عصاني
 سواءً بعاد عنده وتداني
 مع الركب في اسر الصباية عان
 وفي يده منها الشفاء شفاني
 تخرج من ليانه فقضاني (١)
 ليملكني منكم خضيب بنان
 بغير قنا او طالباً لأمان
 واخشى حديد القلب فتك جبان
 فأدركتها إلا بحد سينان
 سرير حصان لا سرير حصان
 ديوني إذا غير الحبيب لواني



(١) الليان : مصدر لوى . يقال : لوى غريمه إذا مطله

الامر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الامر كله للحب .
كما انشد احمد بن يحيى :

من كان يزعم ان سيكتم حبه حتى يُشكك فيه فهو كذوب
الحب اغلب للفؤاد بقميره من ان يرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فانه لم يبد إلا والفتى مغلوب
إنني لأبغض عاشقاً متستراً لم تتهمه أعين وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الاقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه ،
واستأثرت به من بين النساء :

يقرب عيني ان ارى ضوءاً مُزناً يأنس به او ان تهب جنوب
لقد شغفتني ام بكر وبغضت إلي نساء ما لهن ذنوب
اراك من الضرب الذي يجمع الهوى ودونك نسوان لهن ضروب
وقد كنت قبل اليوم احسب انني ذلول بأيام الفراق اديب

وقد وضع هذا المعنى كل الوضوح في قول الضحاك :

يقولون مجنونٌ بسمراء مولعٌ ألا حبتنا جنٌ بنا وولوع
واني لأخفي حب سمراء منهم ويعلم قلبي انه سيشيع
ولا خير في حبٍ يُكنى كأنه شغافٌ اجنته حشاً وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ، وصولة الحب في
قلبه . كقول عمارة اليماني :

ظبي اعار الليل طرة شعره وامتد ضوء الصبح بالاشراق

وسنان ذاب السحر في آماقه واذا ب ماء الروح من آماقي
 كتب الجمال على صحيفة خدّه عذراً المحبّ وحجة المشتاق
 ما كنت ادري يوم رؤية وجهه ان الحدود مصارع العشاق
 واحب ان يتأمل القارىء جمال التصوير في قوله :

وسنان ذاب السحر في آماقه واذا ب ماء الروح من آماقي
 فقد جعل الدمع ذوب الروح ، وهو خيال بديع (١) . وعذراً المحب الذي
 كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء :

يا مليح الدلّ والفنّج لك سلطان على المهرج
 إن بيتاً انت ساكنه غير محتاج إلى السمرج
 وجهك المعشوق حجتنا يوم يأتي الناس بالهيج



(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمل ، كتبها المؤلف في وصف ليلة
 من ليالي الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القارىء إن شاء

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد . فمنهم من يقصد الى غرس
الرفق في قلوب احبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائي :
ويا ايها الغادي تحمل رسالة على ما بها إن الحديث طويل
وقل للأولى حلوا الحمى سقي الحمى عزاء كم فالعامري قنيل
ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه . واطرف ما قيل
من الشعر في هذا المعنى قول الواواء الدمشقي :

بالله ربكما عوجا على سكنى وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولا في حديثكما ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا في ملاطفة ما ضرر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضب فغالطاه وقولا ليس نعرفه
وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة :

فأنتها طبة عالمة تزج الجدد مراراً باللعب
تغلظ القول إذا لانت لها وتراخي عند سورات الغضب

قيل ان ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر : ما أحوج المسلمين إلى
خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه ^(١) . ولعله تذكر قول معاوية : لو أن
بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . قيل وكيف ذاك ؟ فقال إذا شدوا تراخيت
وإن تراخوا شددت :

وقد تلطفت البها زهير في وصية الرسول بقوله :
فيا رسولي الى من لا أبوح به إن المهات فيها يعرف الرجل

(١) في كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء .

بلغ سلاسي وبالغ في الخطاب له وقبّل الارض عني حينما تصل
بالله عرفه حالي إن خلوت به ولا تطل فحبيبي عنده ممل

وإنك لتضحك بلمه فيك حين تتأمل قوله :

إن المهات فيها يُعرف الرجل

فكانما هي قيادة حربية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمل النسيم تحياته إلى من يهوى . كما قال بعض الظرفاء :

فيا نسيم الصبا انت الرسول له والله يعلم اني منك غيران
بلغ سلامي إلى من لا أكله اني على ذلك الغضبان غضبان
لا يارسولي لا تذكر له غضبي فذاك مني تمويه وبهتان
وكيف اغضب لا والله لاغضب اني لما رام من قتلي لفرحان
اكل يوم لنا رسل مرددة وكل يوم لنا في العتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما انا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال :

انا اهوى غصن النقا وهو لاه وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه وتلطّف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالة ليس إلا لك أميناً في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولي نسيما نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حكى ان ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من ابناء
المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار . فمروا في طريقهم ببلح نائم تحت شجرة ،
فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه . فقال الجزار : قفوا ! لينظم كل منا شيئاً في
هذا ! فقال ابن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها تبدي خفايا الردف والاعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل اوجه الغدران
ولذلك الأحباب يتخذونها رسلا الى الأحباب والاطوان

وهو شعر حسن . غير انه لا وجه لذكر الاطوان في هذا الموطن إذ لا علاقة

لها بالقيادة . ولو قال الخلان او الاخدان لكان انسب واقرب إلى المراه . وقال
ابن الخياط :

يا نسيم الصبا الولوع بوجدني حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رايتني شذاك فبالا ه متى عهده بأظلال نجد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه ، وتبليغ شكواه ، كقول الشريف :

دعاً بالوحاف السود من جانب الحمى لديغ هوّى لبّيتُ حـين دعاني
تمجّبتُ صعبتي من البكائي وأنكروا جوابي لما لم تسمع الاذنان
فقلت نعم لم تسمع الاذن دعوة بلى إن قلبي سامعٌ وجناني
ويا أيها الركب اليانون خبّروا طليقاً بأعلى الخيف أنني عاني
عِدْوه لِقائي أو عِدْوني لقاءه ألا ربّما دانيتُ غير مدان

وهذا شعر موجع ، يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، واشجى منه قول
مهيار :

تعرّشٌ بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ ولولا مكان الريب قلت لك ازدد
وقل صاحبٌ لي ضل بالرمل قلبه لعلك ان يلقاك هادٍ فتتهدي
وسلم على ماءٍ به بُردٌ غلتي وظلٌ أراك كان للوصول موعدي
وَقُلْ لحمام البانئين مهناً تفنّ خلياً من غرامي وغردي
أعندكم يا قاتلين بقيةً على مهجةٍ إن لم تمتُ فكأن قد
ويا أهل نجدٍ كيف بالغور بعدكم بقاء تهاميٍّ بهمُ بمنجدٍ
ملكتم عزيزاً رثقه فتعطّفوا على منكريّ للذل لم يتنوّد

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال : خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس
فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوّان رأيت على حائط مكتوباً بخط جليل :

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة على شعب بوّانٍ أفاق من الكرب
وألهام بطنٌ كالحريرة مسّه ومطرّد يجري من البارد العذب
وطيب ثمار في رياض أريضة وأغصان اشجار جناها على قرب
فبالله يا ربح الجنوب تحملي الى شعب بوّانٍ سلام فتى صب

واذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه :

ليت شعري عن الذين تركتنا خلفنا بالعراق هل يذكروننا
أم لعل المدى تطاول حتى قدم العهد بيننا فنسونا

ولا يفوتنا ان نمتع القارىء بقول الشريف :

حيّ بين النقاوين المصلّى وقفات الركائب الانضاء
ورواح الحبيج ليلة جمع ويجمع مجامع الاهواء (١)
وتعهد ذكرى اذا كنت بالخيرة فإلظبي من بعض تلك الظباء
قل له هل نراك تذكر ما كان ن باب القبيبة الحمراء
قال لي صاحبي غداة التقينا نتشاكى حرّ القلوب الظباء
كنت خبرتني بأنك في الوج مدعقدي وان داءك دائي
ماترى النفس والترحّل للبي ن فماذا انتظارتنا بالبكاء
لم يقلها حتى انثنت لما بي اتلقى دمعي بفضل ردائي



(١) ترد كلمة « جمع » كثيراً في شعر الشريف . وهو من مناسك الحج . ويوم جمع يوم
عرفة . وإيام جمع أيام منى .

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء . لان عبرة النادم
رفق بنفسه التي افسدها الإسراف . أما عبرة المودّع فهي رفق بمحبه الذي
أشجاء الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع :

ان الذين غدوا بلبك غادروا وشلاّ بعينك ما يزال مَعِينَا
غَيْضَن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا
وهو كلام فطري لا كلفة فيه . وما ابدع قول الطاعنات :
ماذا لقيت من الهوى ولقينا !

ومثله قول ابن التعاويذي :

لما وقفنا للوداع	ع وقد دعا داعي الرحيل
وتخاذلت أنصار دمه	بي في هوى الظبي الخدول
قالت وأدمعها تسيب	ل أسى على الخد الاسيل
يا بين كم أجليت يو	م نوى الأحبة عن قتيل

وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم . ويشبه قول بعض الاعراب :

ومما شجاني أنها ودّعت توّلت وماء العين في الجفن حائر'

فلما أعادت مسن بعيد بنظرةٍ
إلى التفاتاً أسلمته المهاجر

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول :

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت تُغيض دمعاً فاض وابله سكبا
مفهفة لم ترض أتراها لها ببدر الدجى شهباً وشمس الضحى تريا
تنفسُ حق يُسلم المقدَّ سلكه وأكظم وجداً كاد ينزع القلباً
وتذري شآبيب الدموع كأنما أذابت بعينها النوى لؤلؤاً رطباً

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان انصب بموقف
التوديع . ومثلها في ذلك قول السري الرفاء :

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت مدامعنا تندى لفرقتهم دما
سلام على من سار قلب محبه اليه فلم يرجع صحيحاً مسلماً
يحل عقود الدر دمعاً ومنطقاً وينظمها حلياً عليه ومبسماً
أماط عن الغذب اللثام لثامه فعاد يديباج الحياء ملثماً
وكلمني جفناه بالدمع خفية فهم غليل الشوق ان يتكلم

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبته التباكي ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم
يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الزفرتين . كالأرجاني إذ يقول :

سفرت كي تزود الحلب منها نظرة حين آذنت بالتناهي
ورأت أنها من الوجد مثلي ولها للفراق مثل بكائي
فتباكيت ودمعها كسقيط الطل في الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو نـ سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع دمعي يصبغ الخد قانياً بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار كاختضاب الزجاج بالصهباء

وما ادري بأي قلب يالج هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء !! وما
أرفق المتنبي إذ يقول :

وجلا الوداع من الحبيب محاسناً 'حسن العزاء وقد جلين قبيح'

فيدة مسجلة وطرف شاخص وحشاً يذوب ومدمع مسفوح
ألم تر اليه وقد انخل قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر إلا أنها جميلة ،
وان الصبر على فراقها أعز منالاً من نجوم السماء !

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء :

زارت على غفلة من الحرس تهدي إليّ السلام في الغلس
أني تجشمت نحو أرحلنا الهول ولم ترهبي أذى العسس
قالت ترامي بنا إليك من الشوق مغيصاً بالبارد السلس
كم زفرة لي تبثت تنهض أحشا في ودمع عليك منبجس
وأنت لاهٍ بغيرنا ولناس منك هوى ممسك على النفس
عجبت من ذلتي ومن قلبك القا سي علينا وخلقك الشكس
لا تأمنن الهوى وسطوته واخش رداه ومنه فاحترس

وهذا الشعر جميل في معناه ، ولكن يظهر ان أسلوبه لا يمثل الرقة في نجوى
الحسناء ، وقد مسها الحب بناره ، وأحرقها بجواه ! ولو تناول ابن أبي ربيعة
أو ابن الاحنف هذا المعنى لرأيت له ثياباً أرق من هذه الثياب ، وأسلوباً غير
هذا الأسلوب !

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل :

لما دنا البين بين الحبي واقتسموا
جادت بأدمعها ليلى وأعجلني
ياقلب ويحك ما عيشي بذى سلم
أكلما بان حي لا تلائهم
علقتني بهوى عنهم فقد جعلت
من الفراق حصاة القلب تنصدع
حبل النوى فهو في أيديهم قطع
وشك الفراق فما أبقى وما أدع
ولا الزمان الذي قد مر مرّ ترجع
ولا يباليون ان يشقائق من فجعوا

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق ومشوق .
ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرتة الحسناء . ومن هذه
الناحية يعجبني ما أنشده صاحب الأمالي :

ولما رأت ان النوى أجنبية

وان خيلاً من غدي سيدين

بكنت فبكى من لاعج الشوق والاسى
فقلت ولم أملك سوابق هبرة
لقد كنت ابكى قبل ان تشحط النوى
وأنظر كيف يصف المرجى خوف محبوبته من فراقه :

وما أنس ملاشياء لأنس موقفاً
ولا قولها وهنا وقد بل جيبها
أأنت الذي خبرت أنك باكر
فقلت يسير بعد شهر أغيبه
وقلت لها قول امرئ شفه الهوى
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت
لنا ولها بالسفح دون ثبير
سوابق دمع لا يحف غزير
غداة غد أو راحل بهجير
وما بعض يوم غبته بيسير
اليها ولو طال الزمان فقير
بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

وكنا نحب ان نعلم بقية العتاب في قوله :

أحين عصيت العاذلين اليكم
وباعدني فيك الاقارب كلهم
ونازعت حبلي في هواك أميري
وباح بما يخفي اللسان ضميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة .

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من أحاديث الرجال . ولو ان المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق . وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهود :

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله
حبيب أبى إلا أطراحي وبغضتي
وتنقض مني بالمغيب وثائقه
وفضله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب :

محاحب يحيى حب يعلى فاصبحت
ألا بأبي يحيى ومثنى ردائه
ليحيى توالي حبنا وأوائله
وحيث التقت من متن يحيى حمائله

فان هذا الشعر يمثل احساس النساء بجمال الرجال . وما اوجع الشوق في قول هذه الشاعرة :

أضرب في يحيى وبينى وبينه
تنائف لو تسري بها الريح كلت

الا ليت يحى يوم عيهم زارنا وان نهلت مني السياط وعلت

وفي الآداب العربية قطع منشورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل ، ولكنها
من القلة بحيث لا تصور تماماً نفوس النساء ، ولا تزال لغزاً من الألغاز ، ولو
أنها تحدث عن عواطفها كما تحدث الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا
الصمت البليغ !



ندم المفارق

أشهر الشعر في ندم الحب، على فراق من يحب، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبنى. قال محمد بن زياد الاعرابي: لما ألحَّ ذريح على ابنه قيس في طلاق لبنى، فأبى ذلك قيس، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله. لا أريم هذا الموضع حتى أموت. أو يخليها. فجاءه قومه من كل ناحية، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: اتفعل هذا بأبيك وامك، وإن مات شيخك على هذه الحال كنت معينا عليه وشريكاً في قتله، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره. وبكى حتى بكى لهما من حضرها. وأنشأ يقول:

أقول خلقتي في غير جرمٍ	ألا بيني بنفسك انت بيني
فوالله العظيم لنزع نفسي	وقطع الرجل مني واليمين
أحب إليّ يا لبنى فراقاً	فبكى للفراق واسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرمٍ	لقد أذهبت آخري وديني

قال: فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديداً وأنشأت تقول:

رحلت اليه من بلدي واهلي	فجازاني جزاء الخائنين
فمن يرني فلا يفتّر بعدي	بجلو القول أو يبلو الدفين

فلما انقضت عدتها وارادت الشخوص الى اهلها أتيت براحة لتحمل عليها.

فلما رأى ذلك قيس داخله منه امر عظيم، واشتد لهفه، وأنشأ يقول:

بانت لبنى فأنت اليوم متبول	وانك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة	ودلّ لبنى، لها الخيرات، معسول

هل ترجعن نوى لبنى بعافية
وقد اراني بلبنى حق مقتنع
فصرت من حب لبنى حين اذكرها
اصبحت من حب لبنى حين اذكرها
والجسم مني منهوك لفرقتها
استودع الله لبنى إذ تفارقني
كما عهدت ليالي العشق مقبول
والشمل مجتمع والجلل موصول
ألقب مرتهن والعقل مدخول
في كربة ففؤادي اليوم مشغول
أخو هيام مصاب القلب مسلول
عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبل موضع رجلها من الارض وحول خباثتها
فلما رأى ذلك قومه اقبلوا على ابيه بالعدل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله :
قد جنيت عليك يا بُني ! فقال له قيس : قد كنت اخبرك أني مجنون بها فلم
ترض إلا بقتلي . فإله حسبك وحسب امي !! واقبل قومه يعدلون به بتقييده
التراب ، فأنشأ يقول :

فما حبي لطيب تراب ارضي ولكن حب من وطىء الترابا
فهذا فعل شيخينا جميعا ارادا لي البليّة والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدل على لوعته وامفه لفراق لبنى
كقوله :

تبكي على لبنى وانت تركتها
فلا تبكين في إثر شيء ندامة
فليس لأمر حاول الله جمعه
كأنك لم تقنع اذا لم تلاقها
فيا قلب خبرني اذا شطت النوى
اتصبر للبين المشت مع الجوى
فما انت ان باليت لبيني بهاجع
وكيف ينال المرء مستشعر الجوى
ولا خير في الدنيا إذا لم تواتنا
ولولا رجاء القلب ان تعطف النوى
وكنيت كآت غيه وهو طائع
إذا نزعته من يدك النوازع
مشت ولا ما فرق الله جامع
وان تلقها فالقلب راض وقانع
بلبنى وصدت عنك ما انت صانع
ام انت امرؤ ناسي الحياء فجازع
إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
ضجيج الاسى فيه نكاس روادع
لبنى ولم يجمع لنا الشمل جامع
لما حملته بينهن الاضالع

له وجباتٌ إثر لبنى كأنها
نهارى نهار الناس حتى اذا دجا
اقضى نهارى بالحديث وبالمنى
ألا إنما ابكي لما هو واقع

شقائق برق في السحاب لوامع
لي الليل هزتني اليك المضامع
ويجمعني بالليل والهمم جامع
وهل جزع من وشك بينك نافع

ومن جيد شعره أيضاً هذه القصيدة :

سأصرم لبنى حبل وصلك بجمل
وسوف أسلي النفس عنك كما سلا
وان مسني للضرر منك كآبة
سقى طلل الدار التي اتم بها
يقولون صب بالنساء موكل
حضى زمن والناس يستشفعونني
ايا حرجات الحي حيث تحملوا
وخياتك اللاتي بمنعرج اللوى
الي الله اشكونية شقت العصا
وإن انهال العين بالدمع كلما
فلو لم يهجنني الظاعنون لها جنى
تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوى
لعمرك اني يوم جرعاء مالك
قدمت على ما كان مني ، فقدتني
اذا مالخاني العاذلات بجها
وكيف اطيع العاذلات وحبا
عدمك من نفس شعاع فاني
فقرت لي غير القريب واشرقت
وضعفني حبيك حتى كأنني
وحتى دعاني الناس احق مائفاً

وان كان صرم الحبل منك يروع
عن البلد النائي البعيد نزع
وان نال جسمي للفراق خشوع
بشرقي لبنى صيف وربيع
وما ذاك من فعل الرجال بديع
فهل لي الى لبنى الغداة شفيح
بندي سلم لاجادكن ربيع
بلين بلى لم تبلهن ربوع
هي اليوم شتى وهي امس جميع
ذكرتك وحدي خالياً لسريع
حياثم ورق في الديار وقوع
نوائح ما تجري هن دموع
لعاص لامر المرشدين مضيع
كما يندم المغبون حين يبيع
ابت كبد مما أجن صديق
يؤرقني والعاذلات هجوع
نبيتك عن هذا وانت جميع
هناك ثنايا ما هن طلوع
من الاهل والمال التلاد خليع
وقالوا مطيع للضلال تبوع

ويعجبني قوله :

ندمت على ما كان مني ، فقدتني ! كما يندم المغبون حين يبيع
وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف ، فانه فجع بفر
جليلته ، والحليلة المعشوقة متاع عزيز .

وفي وصف اثر الطلاق يقول احد الاعراب :

ندمت وما تغني الندامة بعدما جرجن ثلاث ما لهن رجوع
ثلاث يُجرّ من الحلال على الفتى ويصدعن شعب الدار وهو جميع
والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغني عنه ان يقول: (ويصد.
شعب القلب) لان فراق الحليلة هدم للبيت من اساسه .

ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك ابنة عمه
بغداد ورحل الى الاندلس في سبيل الرزق ، ثم حيل بينه وبين ما يريد ، فأرء
هذه الزفرة الباقية :

استودع الله في بغداد لي قرأ	بالكرخ من فلك الازرار مطلعته
ودعته وبودي لو يودعني	صفو الحياة واني لا أودعه
وكم تشفع بي ان لا افارقه	وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى	وأدمعي مستهلات وادمعه
لا اكذب الله ثوب العذر منخرق	مني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنابته	بالبن عنه وقلبي لا يوسعـه
أعطيت ملسا فلم احسن سياسته	كذلك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا	شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته	كأساً يُجرّع منها ما اجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له	الذنب والله ذنبي لست ادفعه
هلا اقمتم فكان الرشد اجمعه	لو انني حين بات الرشد اتبعه
لو انني لم تقع عيني على بلد	في سفرتي هذه إلا واقطعه
يا من اقطع ايامي وأنفدها	حرناً عليه وليلي لست اجمعه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا	لا يطمئن به مذ بنت مضجعه

ما كنت احسبان الدهر يفجعني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
وكنت من ريب دهري جازعاً فرقاً
بالله يا منزل القصف الذي درست
هل الزمان معيد فيك لذتنا
في ذمة الله من اصبحت منزله
من عنده لي عهد لا يضيع كما
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا
لا صبرن لدهر لا يتعنى
علماً بأن اصطباري معقب فرجاً
علّ الليالي التي اضنت بفرقتنا
وان تغل احداً منا منيته
وان يدم أبداً هذا الفراق لنا

به ولا ان بي الايام تفجعه
عسراء تمنعني حقي وتمعه
فلم أوقّ الذي قد كنت أجزعه
آثاره وعفت مذبت أربعه
ام الليالي التي امضته ترجمه
وجاد غيث على مغناك يُمرعه
عندي له عهد صدق لا اضيعه
جرى على قلبه ذكرى يصدعه
به ولا بي في حال يتمه
فأضيق الامر لو فكرت اوسعه
جسمى ستجمعني يوماً وتجمعه
لا بدّ في غده الثاني سيتبعه
فما الذي بقضاء الله نصنع

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعرض من
بعدها البنان . فلنذكرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من ظرف الجحون :

استغفر الله من تركي علانية
ظبيّ دعطني عيناه ومنطقه
فلم اجبه وحظي في اجابته
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني
اقسمت بالله لما كنت محتجزاً

ذنباً هممت به في شادن خنث^(١)
بنية صدقت عن ظاهر عبث
لكن سكنت كأي غير مكثرت
والله ما كنت فيها بالفق الدمث
أني انبعثت بقلب غير منبعث

(١) الشادن : الغزال . والخنث : المتثنى

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأن الامر كما قال الشريف
ليس الغريب الذي تنأى الديار به ان الغريب قريب غير مودود
فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه . كما قال حذيفة الغنوي :

يقولون من هذا الغريب بأرضنا اما والهدايا إنني والغريب
غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى كما قيدَ عود بالزمام اديب (١)
وماذا عليكم ان اطاف بأرضكم مطالب دين او نفته حروب
امشي بأعطان المياه وابتنغي قلائص منها صعبة وركوب
ومن شجي الشعر في غربة المحب قول بعض الاعراب :

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة غزال كحيل المقلتين ربيب
فلا تحسبي ان الغريب الذي نأى ولكن من تنأى عنه غريب
ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الاعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في
اغتراب محبوبته :

أرى كل ارض دمنتها وان مضت لها سجعج^٢ يزداد طيباً تراها (٢)
الم تعلمن يا رب ان رُب دعوة دعوتك فيها مخلصاً لو اجابها
واقسم لو اني ارى نسباً لها ذئاب الفلا حبت إلي ذئابها
لعمري ابي ليلى لئن هي اصبحت بوادي القرى ماضراً غيري اغترابها
وغربة المحب تتمثل في حرمانه . وكيف لا يكون غريباً من يقول :

(١) العود الجميل ، واديب ذلول

(٢) دمنتها : مشت عليها

أيا منشـر الموتى اقدني من التي بها نهـلت نفسي سقاماً وعلت
لقد بخلت حقى لو اني سألتها قذى العين من سافي التراب لضنت
وما أمّ بوّ هالك بتنوفة اذا ذكرته آخر الليل حنت
بأكثر من لوعةٍ غير انني اطامن احشائي على ما اجنت

ويظهر ان قذى العين كان في انفس العرب مثلاً لما لا يرضن به ، فقد ردّدوا
ذكره في اشعارهم ، كما قال بعض بني اسد :

وكيف طلابي وصل من لو سألته قذى العين لم يطلب وذاك زهيد^(١)
ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي اراك صحيحاً والفؤاد جليد^٢



(١) اطلبه : اعطاه ما طلب

الامل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع ، ونقلها الى الفرنسية .
حضرة الاديب عبد المجيد عيسى البيه . وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر ،
بعد قسوة الإخفاق .

• • •

تأيت حتى لامني كل صاحب رجاء سليمى ان تثمى كما إمت'
لئن بعث حظي منك يوماً بغيره لبشس إذا يوم التغابن ما بعث
كنت اصبر على بأساء الحياة ، واحتمل ما فيها من غم وغم ، لو ان عندي
بقية من الامل أرفته بها احزائي ، وادفن فيها آلامي ! ولكن حال
القنوط دون الرجاء ، واثى اليأس دون الطمع ، فلم يبق غير الجزع من مُسعد ،
ولا سوى النوح من شفاء !

فيا جيرة ما كان هنأ وردهم ، واطيب عيشهم ، ويا احباباً ذقت الفرح
بقربهم ، وعرفت الهم لبغدهم ، ويا من افناني فراقهم ، وكان احبائي لقاؤهم ،
وبربكم ما الذي لقيتم بعدي ، فقد لقيت بعدهم ذلاً وهواناً ، وظلماً وعدواناً ،
ومن عسى ان يكون قد ظفر بودكم ، ونعيم بحسنكم ، فأصفاكم من الحب
اجمله ، ومن الانس اكمله ، فقد صعبت بعدكم من جحدنعمتي ، وانكر خلقي ،
ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب ، واوليته القرب فأولاني القطيعة ؟ !

فيا ليت شعري من ألوم ؟

أألوم نفسي على ان لم اعق في بركم اهلي واخواني ، فأسير حيث سرتهم ،
واقم حيث اقمتم .

تفرّق أهلي من مقيم وظاعن فيا ليت شعري أيّ أهليّ اتبع
اقام الذين لا ابالي فراقهم وشطّ الذين بينهم اتوقع

أم ألوكم على ان تركتموني وحيداً وآثرتم وطنكم ، واهلكم ، ولم تبالوا
بمن خلفتموه طريح حزنه ، واسير همه ؟

أم ألوهم قوماً جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شربدل ، واتخذتهم من بعدكم
ذخراً فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصناً اتقي به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ،
فاذا هم أذل من قراد بنسهم ، وإذا المتفيء ظلمهم ، والراجي برهم ، يطمع في غير
مطمع ، ويلجأ الى شر وزر ؟ !

أم ألوهم دهرأ اضطرّكم الى الرحلة فرحلتهم ، وحكم عليّ بالمقام فأقمت ، ثم
أمدنا من اليأس لبعد الدار ، وشطّ المزار ، ما جعل الامر في التلاقي خائباً ،
ورجاء التّداني كاذباً :

وقلما ابقى على ما ارى يوشك ان ينعماني الناعي
ما اقتل اليأس لاهل الهوى لا سيما من بعد إطماع

ما هذا الذي صنعتم ؟ اخضعتم لليأس ، واذعنتم للقنوط ، ولم ترهبوا العتاب
إذ لم تأملوا اللقاء ، فزفتم تلك الشمس الى غيري ، وآثرتم بها سواي ؟ !

يا عزّ ان ضاعت عهددي عندكم فأنا الذي استودعت غير امين
او عدت مغبوناً فما انا في الهوى لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فملتم - ولا وفاء للملول - فكان منكم ما اقضّ المضجع ،
واورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ، وقال القنوط منا ؟ ولكن
هيهات بعد اليوم ان ينفع العزاء .

هي الغاية القصوى فان فات نيلها
فكل مني الدنيا عليّ حرام



وقد نظرت ما قال الشعراء في الامل الضائع ، ووجدت لهم فيه افانين ،
فمنهم من يأسف على ان لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذي يقول :

جارية اعجبها حسنهما فمثلها في الناس لم يُخلق
خبرتها اني محب لها فأقبلت تضحك من منطقي
والتقت نحو فتاة لها كالرشا الوسنان في قرطقي
قالت لها قولني لهذا الفتى انظر الى وجهك ثم اعشقي^(١)

ومن جيد الشعر في ضياع الامل قول عمر بن ابي ربيعة في 'سكينة بنت
الحسين :

قالت سكينة والدموع ذوارف ليت المغيري الذي لم اجزه
كانت ترد لنا المنى ايامنا كانت ترد لنا المنى ايامنا
خبرت ما قالت فبت كأنما اسكين ما ماء الفرات وبرده
بالذ منك وان نأيت وقلما ان تبدلي لي نائلا اشفى به
وعصيت فيك اقاربي فتقطعت فتركتني لا بالوصال 'ممسكا'
فقدت كالمهريق فضلة مائه تجري على الحدين والجلباب
فيا اطال تصيدي وطلابي اذلا نلام على هوى وقصابي
يرى الحشا بنوافذ الشباب مني على ظمأ وفقد شراب
يرعى النساء امانة الغيابة سقم الفؤاد فقد اطلت عذابي
بينني وبينهم عرى الاسباب منهم ولا اسعفتني بثواب
في حر هاجرة للمع سراب

ولم أر من الشعراء من بكى الامل الضائع كما بكاه 'كثير في قوله :

وادنيتني حتى اذا ما استبيتني بقول يحل العصم سهل الاباطح
توليت عني حين لالى مذهب وغازرت ما غادرت بين الجوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب ، وقد استدرجه محبوبه ، حتى اخذ الطمع

(١) رواية صديقنا الدكتور ابراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لاسنافك ثم اعشقي) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند اطباء الاسنان .

بنواصي آماله ، ثم تركه في اللحظة الأخيرة ، يتعثر في اذيال الخيبة والقنوط !

وفي هذا المعنى يقول الشريف :

كم قد نصبت لك الحباثل طامعاً فنجوتَ بعد تعرُّض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب عُلقِي أسفاً على ذاك اللمي المنوع

ومن الامل الذاهب ان يكون من تحبه ، من بلد غير بلدك ، وقوم غير قومك ، كما قال نصيب :

أرق الحب وعاده سُهدُه لطوارق الهم التي تردُّه
وذكرت من رقت له كبدي وقسا فليس ترق لي كبده
لا قومه قومي ، ولا بلدي فنكون حيناً جيرةً بلده
ووجدت وجداً لم يكن احدٌ من اجله بصباية يجده

ونصيب يتحدث كثيراً عن عقم الأمازي ، حتى يقول :

ألا هل على البين المفرق من بدّ وهل مثل أيام بمنقطع السدّ
تمنيت أيامي أولئك والمنى على عهد عادي ما تعيد وما تبدي



الكتان

من الشعراء من لا يهمه من الكتان غير ستر تفاصيل الود . واسرار القرب ،
ولا يرى بعد ذلك حرجاً في ذكر اسم من يحب ، كما قال جميل :
لا لا ابوح بحب بشينة انها أخذت عليّ موثقاً وعموداً

وانه لو كان يذهب الى نكران الاسم وجحوده ، تضليلاً للوشاة ، لكان
هذا البيت من سخف القول ، وهذره . واليك ما يقول من كلمة ثانية :

وماذا عسى الواشون ان يتحدثوا سوى ان يقولوا انني لك هاشق
نعم صدق الواشون انت حبيبة إليّ وإن لم تصفُ منك الخلائقُ

فانه يدل على انه لا يبالي ان يُعرف بحبها . حتى قال الناس : جميل
بشينة كما قالوا مجنون ليلى . ويذكر ابو علي القاي ان البيت السالف لكثير ،
وانه ذكر بشينة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حتم ، لأن كثير ما كان
يعمل عن عزة إلا لضرورة الشعر . كقوله :

كفى حزناً للعين أن رد طرفها لعزة غير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا اشفى اذن لغليلي
توليت محزوناً وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل

فقد ذكر عزة عند موافاة الشعر ، وليلى عند معاصاته ، وهو نوع من التلاعب
بالاسماء الذي كثر في شعر العرب . وقال كثير من قصيدة اخرى :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويخفي لكم حباً شديداً ورهبة وللناس أشغالٌ وحبك شاغله
كريمٌ يُميت السر حتى كأنه اذا حدثوه عن حديثك جاهله

يودّ بأن يسي سقيماً لعلها إذا سمعت عنه بشكوى ترأسه
ويجهد للمعروف في طلب العلا لتُحمد يوماً عند عز شأله

وهو في هذا الشعر لا يكتّم اسم من يهوى ، وإنما يكتّم احاديث الحب ،
واسرار الصبابة ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي :

ومستخبّر عن سر رّيا رددته بعمياء من ريا بغير يقين
فقال انتصحنني إنني لك ناصح وما أنا إن خبرته بأمين

وهذا العباس بن الاحنف كان من اكثر المحبين كتماناً ، ولكنه صرح باسم
محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد احدي جارتها له ان سمّت جارتها « فوز »
وقد قال في ذلك :

ما ينقضي عجيبي من جهل حاسدة كانت بذني الأثل من خدي وانصاري
سمت وليدتها فوزاً مغايظة عذرت لو لطمتني ذات اسوار
وما يزال نساء من قرابتها في كل ناحية يهتكن أستاري
ومسلم بن الوليد يتغنى بكتّم تباريح الصبابة في قوله :

وما نلت منها نائلاً غير انني بشجوا المحبين الا الى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت نفسي بنظرة اليها تزيد القلب خبلاً على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلي فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل
وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله :

بنفسي التي ضنت عليّ بوصلها ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
وان حكمت جارت عليّ بحكمها ولكن ذاك الجور أحلى من العذل
واحبيت فيها العذل حباً لذكرها فلا شيء أحلى في فؤادي من العذل
وهو يذكرنا بقول ابي الشيص الخزاعي :

اجد الملامة في هواك لذينة حباً لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت اعدائي فصرت احبهم اذ كان حظي منك حظي منهم
وقول ابن نباتة المصري :

لثمت ثغر عذولي حين سمّاك فلذ حتى كأني لاثم فاك

ومن العشاق من يكتّم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاّس :
 كتّمت الهوى عند العواذل ضنة عليهم بن أصبوا اليه وأهواه
 ولو قلت اني عاشق فطنوا له لعلمهم أن ليس يُعشق إلا هو
 وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول :
 وقائلة ما بال جسمك لا يُرى سقيا واجسام الحبين تسقمُ
 فقلت لها قلبي بحبك لم يبح الجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم
 وللعباس بن الاحنف شجون من الحديث عن الكتّان ، فتارة يذكر انه باح
 بحبه حين طال بلاؤه . كقوله :

هذا كتاب بدمع عيني أملاه قلبي على لساني
 الى حبيب كنيت عنه أجل ذكر اسمه لساني
 قد كنت اطوي هواه عنه مذكنت في سالف الزمان
 فبحت اذ طال بي بلائي ولم يكن لي به يدان
 وهو هنا يكتّم حبه عن محبوبه ، فضلا عن الناس . وتارة يذكر أنه سيموت
 مكتوم السر إلا عن يحب . فيقول :

أبكى الذين أذاقوني مودتهم حق إذا يقظوني في الهوى رقدوا
 واستنهضوني فلما قت منتصباً بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
 جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدي قد كنت احسبهم يوفون ان وعدوا
 لأخرجنّ من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يشعر به احد
 حسبي بان تعلموا أن قد احبكم قلبي وان تسمعوا صوت الذي اجد

وحيناً يذكر انه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقا بمحبوبته
 فيقول :

كذبت على نفسي فحدثت اني سلوت لكيا ينكروا حين أصدق
 ولا من قلبي مني ولا عن ملالة ولكنني أبقى عليك وأشفقُ
 عطفت على اسراركم فكسوتها قيصاً من الكتّان لا يتخرقُ

وقد يعتذر عن هجره فيقول :

الله يعلم ما اردت بهجركم إلا مصانعة العدو الكاشح
وعلمت ان تباعدني وتستري أدنى لوصولك من دنو فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود :

سأهجر إلفي وهجرانها إذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محب ولكننا ندافع عن حبنا بالصدود

وتأمل قوله « صدود الخدود » يريد بذلك ان كلا منهما يصدف بخسده
عن صاحبه ، أما القلوب فهي في ائتلاف . وطورا يكتفي بجديث العيون ،
كقوله :

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين
تخبرنا العيون بما اردنا وفي القلبين ثم هوى دفين
وقد يسر الحزن ، ويبدى السرور ، مبالغة في التستر ، كقوله :

عيون العائدات تراك دوني فيا حسدي لعيني من يراك
أريدك بالكلام فأقيمهم وأعمد بالكلام الى سواك
واكثر فيهم ضحكى ليخفى فسنتي ضاحك والقلب باك

وقد افصح عن ضرورة الكتمان بقوله :

سأستر والستر من شيمى هوى من أحب بمن لا أحب
ولا بد من كذب في الهوى اذا كان دفع الأذى بالكذب

وربما تمنى لو استطاع ان يكاتم قلبه الحب . فيقول :

اذا لم يكن للمرء بد من الردى فأكرم اسباب الردى سبب الحب
ولو ان خلقاً كاتم الحب قلبه لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
اذا قيل 'تقريبك السلام تماسكت' حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد يبأس من كتم الحب فيقول :

أما الهوى فهو شيء لا خفاء به شتان بين سبيل الغي والرشد
إن المحبين قوم بين اعينهم وسم من الحب لا يخفى على احد
وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من اجل حبه في بيداء من الظنون ،

ليس الليل نهار ، كما يقول :

قد سحَّب الناس أذيال الظنون بنا وفرَّق الناس فينا قولهم فِرَقًا
فجَاهِلٌ قد رمى بالظن غيركم وصادق ليس يدري انه صدقا

وقد ذكروا ان العباس بن الاحنف مات هو وابراهيم الموصلي والكسائي في
يوم واحد . فرفع ذلك الى الرشيد . فأمر المأمون ان يصلي عليهم . فصفا بين
يديه . ثم سأل عنهم واحداً واحداً وأمر بتقديم ابن الاحنف فصلى عليه .
فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال : ياسيدي
كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين :

سمَّاكَ لي ناس وقالوا انها لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم افي ليعجبني المحب الجاحدُ

ثم قال ألحفظها ؟ فقال نعم . فقال : أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة
فقال بلى يا سيدي ! (١)

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذريح :

لوان أمراً أخفى الهوى عن ضميره لمت ولم يعلم بذلك ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبج بسرِّك والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجه في الكتمان قول جواهر بن عبد الحكيم الكلبي :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه ودينك عند الزاهرية ما يُقضى
أكتم في حيي ظريفة بالقي اذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدوداً عن الحي الذين أودهم كأنني عدو لا يزور لهم ارضا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ على آلةٍ إلا ظللنا لها مرضى
وما تقع الهيمان بالشرب بعدهم ولا ذاق العينان مذ فارقوا غمضا

وقد يتهم المرء بحب من لا يحب ، فيتمني لو تصدق التهمة ، كما قال

(١) وضع صاحب البدائع كتاباً خاصاً سماه «صباية ابن الاحنف» تناول فيه بالتفصيل حياة هذا
الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن ابي ربيعة وابي نواس.

صاحب البدائع :

عجبت لهم أنى رموني بحبها ولا مهجتي رهنٌ لديها ولا قلبي
فيا رب صدق في هواها عواذلي فان عناءً ان الألام بلا ذنب
وإلا فلا تقطع عليّ ملامهم فان ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته :

سرّي وسرّك لا يعلم به احد إلا الإله وإلا أنتِ ثم أنا

فقلت له لا تنس القوادة ، فعندها الخبر اليقين !



قسوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود . واكثروا القول كذلك عن قسوة التجني ، فمن ذلك قول ابن نباتة السعدي :

يا دهر لا غفلات العيش عائدةً ولا الشباب الذي ابليته فيها
ان كنت تمنع 'سعدى' من مطالبتها فلست تمنع 'سعدى' من تمنيتها
لله نعمة أوتارٍ ومسمعةً باقت تدل على شوقي اغانيها
وقهوة كشعاع الشمس طالعةً أفنيت بالمزج فيها ريق ساقمها
لو كنت اخضع في الدنيا لنائبة خضعت من هجرها او من تجنيها
تستعذب الدمع عيني في حبتها كأن ما تتره العين من فيها

وما اجمل قول ابن الرومي :

يا عليلا جعل العلة مفتاحاً لظلمي
ليس في الارض عليل غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الآنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح : فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله :

تلوم حياة على العاشقين رويداً ورفقاً بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت المحب هنيئاً لعينيك في الناعسات

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة . فأجابه بما نصه :
« يرى سيدي الشاعر ان الآنسة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين . ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب . لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء . يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتُمون . » فإذا قال السياسي

(لا) فاعلم انه يريد (نعم) واذا قال (نعم) فاعلم انه يريد (لا) واذا قالت المرأة (لا احب) فاعلم انها (تحب) واذا زعمت انها (كارهة) فاعلم انها (راضية) فان كنت في ريب من ذلك يا صديقي الاديب فاني اذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الافكار سنة ١٩١٩ :

عهد السياسة كاذبٌ الله درُّك يا سجاح !

وقد قال (تاسو) احد شعراء ايطاليا : ان المرأة تفر ، وتود ان تلحق وهي فارّة : وتأبى ، وتود في اباؤها ان تُسرق . وتناضل ، وترغب ان يُظفر بها في النضال ! !

فقول الآنسة حياة « لست ممن تغلب الحب على قلوبهم » معناه ان الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها « الحب عدو لدود للانسان » فيجب ان يُبعد عن القلوب ، معناه ان الحب مادة الحياة . فيجب ان تزود به القلوب !

وقولها « تباعدوا عن الحب » معناه اقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهمي ! فهي حين تقول « لعن الله الحب » انما تريد « حيا الله الحب » وانت بما تريد عليم !

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة ان اوجه الآنسة حياة هذا السؤال :

انك تأمريننا بأن لانحب (سمعاً وطاعة !) ولو اني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاماً لنجوت من الحب . ولا سترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكني يا مولاتي لسوء الحظ قد احببت ، وقد ضربت بمحبتي الامثال ، واريد ان اسلم من الحب على يدك الطاهرة ، جعل الله في ينالك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك ان تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن اسماء الحب الضلال ؟

انا في انتظار الجواب !

ملحوظة — ارجو ان تعترس الآنسة حياة ، وهي تكتب أنواع العقاقير ،

من ان تنهاني عن التطلع الى العيون ، والحدود ، والشغور ، والنحور ، والنهود ،
فانه لا سبيل الي مثل هذا المتاب !! وانما اريد ان اسلو وانا اعبت بأفنان
الجمال ، كما يرُدُّ الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساق.
الجميل !!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة
في الايجاز لأمتعنا به القارئ ، ومن السهل الرجوع اليه في كتاب
البدائع .

وقد أحسن التجني في قول احد الشعراء :

صدّ عني محمد بن سعيد اجمل العالمين ثانيَ جيدِ
ليس من بغضةٍ يصد ولكن يتجنّى لحسنه في الصدود



ظالم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكمُ عليّة بنت المهدي بأن الحب بُني عليه . وتقول :

وُضع الحبُّ على الجَورِ فلو انصفَ المعشوق فيه لسمُجُ
ليس يستحسن في شرع الهوى عاشقٌ يُحسن تأليف الحُجَجِ

وقال النميري :

راحتي في مقالة العُدّالِ وشفائي في قيلهم بعد قالِ
لا يطيب الهوى ولا يحسن الح ب لصبِّ الا بخمس خصال
بسماع الاذى وعذل نصيح وعتابِ وهجرةٍ . وتقال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله :

لولا اطراد الصيد لم تك لذة فتطاردني لي في الوصال قليلا
هذا الشراب اخو الحياة وماله من لذة حتى يصيب غليلا

ومثله قول الآخر :

دع الصبّ يصلى بالأذى من حبيبه فان الاذى بمن تُحب سرورُ
غبار قطيع الشاء في عين ذئبها اذا ما تلا آفاهن ذرور

وأنشد الاصمعي :

لا خير في الحب وقفاً لا تحركه عوامل اليأس او يقتاده الطمعُ
لو كان لي صبرها او عندها جزعي لكنك املك ما آتي وما ادع
اذا دعا باسمها داعٍ ليحزنني كادت له شعبةٌ من مهجتي تقع
لا احمل اللوم فيها والغرام بها ما كلف الله نفساً فوق ما تسع

ومن جيّد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري :

رمتني وسير الله بيني وبينها
رميم التي قالت لجارات بيتها
ألا ربّ يومٍ لو رمتني رميمتها
فيا عجباً من قاتلٍ لي أودّه
يرى الناس أني قد سلوت وانني
لمدنّف احشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ .

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي :

أصبحت مملوكاً لأحسن مالِك
لم يَعمه أرقي وفيه لقيته
كلا ولا دمعي وفيه سفحته
لامسه بعقوبة من ربه
يا ليت شعري هل يبيت مُعانقي
هل انت مُنصف عاشقٍ متظلم
قسماً لقد خيّم منك بمنزل
ما بال ثغرك مشرباً لي سُكره
نفسي معذبة به من دونه
لو كان كمل حسنه إسجاحه
حق أضرّ بمقلتي إلحاحه
حق أضرّ بوجنتي تسفاحه
إفلاقه قلبي ولا إتراحه
ويداي من دون الوشاح وشاحه
طول النحيب شكاته وصياحه
لي حرّنه ولمن سواي بطاحه
ولمن سواي فدتك نفسي راحه
ويُباحه دوني ولست أباحه

وأحب لو تأمل القاريء قول الشريف :

ولي ناظرٌ بعد بين الخلية
رواء من الماء آماقه
فأين من الداء إفراقه (١)
فيا ظالماً طيباً ظلمه
يباع بسومك حبّ القلوب
طومات من الدمع إنسانه
ظلماء من النوم أجفانه
واين من القلب سلوانه
كثيراً على القلب اعوانه
وتفلق عندك أثمانه (٢)

(١) أفرق من دائه أبرء منه (٢) غلق الثمن: ضاع

وشرّ الاساءة من مالِكِ أساء وما نيلَ إحسانه
وقال نُويَب :

أيا ثارات من قتلته سُعدى دمي لا تطلبوه لها حلالُ
أرقّ لها وأُشفق بعد قتلي على سُعدى وإن قلّ النوال
وما جادت لنا يوماً ببذل يمينٍ من سعادٍ ولا شحال

ونويَب هذا هو الذي يقول :

ألا في سبيل الله نفسٌ تقسّمتْ شعاعاً وقلبٌ للحسان صديقُ
أفاقت قلوبٌ كن عذبن بالهوى زماناً وقلبي ما أراه يُفريقُ
عصيت بك الناهين حتى لو أنني أموت لما أرعى عليّ شفيقُ



قصة القلوب

والعشاق يرمون اهل الحسن بقسوة القلب ، وغلظ الكبد ، ويحسب ابن
الأحنف ان قلوب الحسان قدّت من الصخر . فيقول :

اظن وما جربت مثلك انما قلوب نساء العالمين صخور
ذريني أتم إن لم أنل منك زورة لعل خيالاً في المنام يزور
بكيت إلى سرب القطا حين مرّ بي فقلت ومثلي بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلني إلى من قد هويت اطيّر

وقد نظر المرحوم اسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال :

يا سرحة بجوار الماء ناضرة سقاك دمي ان لم يوف ساقيك
عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثلي في نواحيك
هل من معيري جناحي طائر غرد كي اقطع العمر شدواً في أعاليك
فلا أنفّر عن أرض غرست بها ولا يرن بسمعي غير واديك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء ، في حين ان قلبه
يتلظى على جمر الصدود . كما قال بشار (١) :

أيها الساقيان صبا شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود
إن دائي الصدى وإن دوائي شربة من رضاب ثغر برود
ولها مبسم كغر الاقاهي وحديث كالوشي وشي البرود

(١) في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع اليه لترى ما صنع الدهر بشعر
بشار .

نزلت في السواد من حبة القلـ ب ونالت زيادة المستزيد
ثم قالت نلقاك بعد ليالٍ والليالي يبلين كل جديد
عندها الصبر عن لقاي وعندي زفراتٍ يأكلن قلب الحديد

وما أظرف قول أبي نواس في معشوقته جنان :

جنان تسبني ذكرتُ بخيرٍ وتزعم أنني رجل خبيث
وأن مودتي كذبٌ ومينٌ وإني للذي أهوى نثوبُ
وليس كذا ولا ردٌ عليها ولكن الملول هو النكوث
ولي قلبٌ ينازعني اليها وشوق بين اضلاعي حثيث
رأت كلفي بها ودوام عهدي فملنتني كذا كان الحديث

وأبداع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب :

ليت ما أصبح من رقة خديك بقلبك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع :

لقد صدّدنا كما صدّدتم فهل ندتم كما ندمننا
وشفنا الوجعُ مذ جفوتهم فأظهر الدمع ما كتمننا
وهبت روحي وقلت عطفاً فما عطفتم وما رجعننا
ملكتموها وما وصلتم لقد غنمتم وما غنمنا
وما زددت خوفاً على فؤادي إلا وزدتم رضىً وأمننا
وما رجائي وقد قويتم على جفائي وزدت وهننا
قتلت نفسي على جفاكم وما قرعتم عليّ سننا
لهفي على السالف المقدى لو كان يحدي الفيدا لجننا
فما ذكرنا الذي تقضى إلا على حسنه انتحسبنا

•

لو كنت اشكو الهوى لصخر لحنٌ وجداً وأنتُ حزناً
وذاب من هول ما أراه فقد برانا الهوى وذنبنا
ن كان ذنبٌ فساحونا ويشهد الله ما أسأله

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيتها الظالمُ الجميلُ سلامٌ من أسير قيئته يحفَا
كيف اصليتني من الهجر نارا وحرمت العيون من أن تراكا
ليت من شاء ان يطول أسانا في سبيل الهوى اطال اساك
سوف انجو من الغرام واغدو مُطلق النفس من قيود هواكا
فاسقني المرء من صدودك واحكم جائر الحكم في ظلال صباكا

وقد حسب بعض الناقدين ان في هذا الشعر نذيراً بنقض العهد ، وجمود
الود ، وليس الأمر كما يحسبون ، وانما هي صورة لحالة من حالات النفس ، حين
يشور الوجد ، ويتمنى الحب ليأسه لو افلتت من اشراك هواه ، وهيهات هيهات !



سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب ،
فمنهم من يذكر تعثره في الطريق ، وضلاله عن القصد ، بعد فراق من يحب ،
كما قال بعض الاعراب :

وما وجد مغلوبٍ بصنماءٍ موثقٍ بساقيه من ثقل الحديد كُبولُ
ضعيف الموالى مُسلمٌ بجريرةٍ له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلال أنت معذبٌ غداة غدٍ أو مُسلمٌ فقتيل
بأوجعٍ مني لوعةً يوم راعني فراق حبيبٍ ما اليه سبيل
غداة أسيرُ القصد ثم تردُّني عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر ، وهي آية في وصف الحيرة يرمى بها المحب
المشوق ، بعد فراق لا يُرجى ان يعقبه لقاء . وتأمل كيف شبه حاله بحال
مغلوب كبُل بالحديد ، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه ، وقد اصبح
موضع النذير من الجلال في كل صباح ومساء ، وحسب الفراق ان يرمى المحب في
مثل هذه الحال !

وانشد الجاحظ :

أزف البين المبين قطع الشكّ اليقين
حنَّت العيش فأبكَا في من العيش الحنينُ
لم أكن لا كنت أدري ان ذا البين يكون
علموني كيف اشتا قُ إذا خفَّ القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول :

وأنا بكيت من الفراق فهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدي خالياً ومرسته حتى اشتفت
وعواذلي ينهينني عمن هويت فما انتهيت
وأنا احسب ان البكاء ولطم الحدود اهون ما يجري بعد الفراق ، ويا ويلتناه
من الفراق !

وما اصدق من يقول :

أُزْمَعَةُ ليلي بيني ولم تَمُتْ كَأَنَّكَ عَمَّا قَدْ أَظْلَكَ غَافِلٌ
ستعلم إن شطأت بهم غربة النوى وزالوا بليلي ان قلبك زائل
ومن المتيمين من يشجيه ان يقاسي احبابه متاعب السفر ، ومشاق الشرى ،
ومصاعب الادلاج ، ثم يرجع إلى نفسه فيتوَّجع لحاله بعد الفراق . كقول ابي تمام :

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعة لكان بينهم من اعظم الضرر
فكيف والبين موصول به تعب تكلف البعد في الادلاج والبكر
لو ان ما يبتليني الحادثات به يكون بالماء لم يشرب من الكدر
او كان بالعيس ما بي يوم رحلتهم اعيت على السائق الحادي فلم تسير
كأن ايدي مطاياهم إذا وخذت يقعن في حر وجهي او على بصري

وهذا شعر يُذِيب لفائف القلوب ... وقال بعض المعذبين

قد قلت والمعبرات تسفحها على الحد المآقي
حين انحدرت الى الجزيرة وانقطعت عن العراق
يا بؤس من سل الزما ن عليه سيفاً للفراق

إي والله :

يا بؤس من سل الزما ن عليه سيفاً للفراق

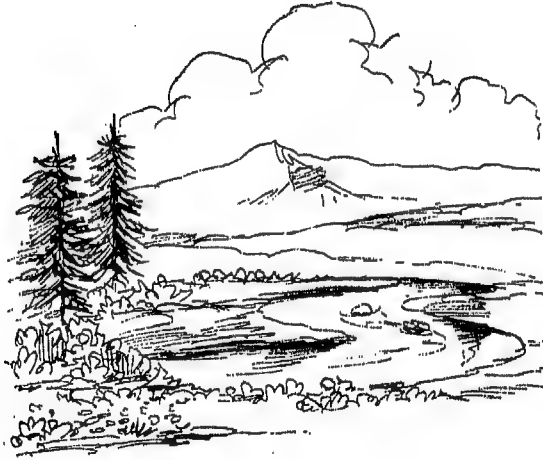
إنه لا محالة مقتول !

وقد يلوم المحب نفسه على فراق احبابه ، كالذي يقول :

أتظمن عن حبيبك ثم تبكي عليه فمن دعاك الى الفراق
كأنك لم تذق للبين طعماً فتعلم إنه مر المذاق

اقم وانعم بطول القرب منه
فما اعتاض المفارق من حبيب
ولا تظعن فتكبت باشتياق
ولو يعطى الشأم مع العراق
ومثله من يقول :

تطوى المراحل عن حبيبك دائماً
كذبتك نفسك لست من اهل الهوى
وتظل تبكيه بدمع ساجم
تشكو الفراق وانت عين الظالم
هلاً اقمتم ولو على جمر الغضى
قلبت او حد الحسام الصارم
وما أوجع ما قالته احدى النساء :
وكنا كفصني بانه وسط روضة
فأفرد هذا الفصن من ذاك قاطع
نشم شذا الأزهار في عيشة رغد
فيسافرة بانث تمن الى فرد
ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال



الهرب من الفراق

واذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس ببدع ان يهرب
البحثري من منظر الوداع ، وان يظرف حين يقول :

الله جارك في انطلاقك تلقاء شامك او عراقك
لا تعذلني في مسي رك يوم سرت ولم الاك
اني خشيت موافقا للبين تسفح غرب ماك
وعلمت ما يلقي المتي م عند ضمك واعتناقك
وعلمت ان لقاءنا سبب اشتياقي واشتياقك
فتركت ذاك تعمدا وخرجت اهرب من فراقك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الاحنف وقد حرم توديع من يحب :
كفى سوزنا اني بقيت وليس لي سبيل الى توديعكم فأودع
تلفت خلفي حيث لم تبق حيلة وذودت عيني نظرة وهي تدمع



غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى يقولون :

رأيت غراباً ساقطاً فوق بانهٍ ينتفُ اعلى ريشه ويطايرُهُ
فقلت ولو اني اشاء زجرته بنفسِي للنهدي هل انت زاجرُهُ
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفي البان بين من حبيب تجاوره
فما اعيف النهدي لا درّ درُّه وازجره للطير لا عزّ ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيرين ورأى ان
الإبل هي التي تفرق الاحباب . كقول أبي الشيص :

ما فرق الاحباب به د الله الا الإبلُ
والناس يلحون غرا ب البين لما جَهلوا
وما على ظهر غرا ب البين تطوى الرّحل
ولا اذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
وما غراب البين الا ناقةٌ او جل

ومنهم من لا يجيز ذم المطي ، لأن لها صلة بمن يحب . كالذي يقول :

زعموا بأن مطيهم عون النوى والمؤذونات بفرقة الاحباب
ولو انها حتفي لما ابغضتها ولها بهم سبب من الاسباب

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ، وحيد العزاء ، فمن
 العشاق من يفقد اضطباره عند الوداع . كقول ابن نباتة السعدي :
 كيف العزاء وأين بابـه^١ والحي قد خفت ركابه
 بأغر^٢ منتقب ينم^٣ على محاسنه نقابه
 متاود^٤ حلو الشائل من أساوره حقا به^(١)
 زعم الخبير انه ضربت على سلع قبابه
 فطلبته كالأيم أو كالسيل في الليل انسيابه
 فإذا أحسم^٥ المقلتي ن يشين أنمله خضابه
 يهتز مثل السميري تدافعت فيه كعابه
 وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجاب به
 أقبلت أسأله وأء لم ان حرمانه جواب به
 ويلى على متلون ال لأخلاق يعجب به شباب به
 لا رسله تترى الي نا بالسلام ولا كتاب به

وأحب ان يتأمل القارئ هذه القصيدة البديعة ، وان يتنبه إلى دقة الوصف
 في جميع ما عرض الشاعر له . وعلى الاخص تلون الاخلاق ، والزهو بالشباب ،
 في أرباب الجمال ! وقال الشريف :

ورامين وهنا بالجار وانما رموا بين أحشاء المحبين بالجر
 رموا لا يبالون الحشا وترواحوا خلين والرامي يصيب ولا يدري
 وقالوا غدا ميعادنا نفر عن منى وما سرني ان اللقاء مع النفر

(١) الحجاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحل

ويا بؤس للقرب الذي لا ندوؤه سوى ساعةٍ ثم البعاد مدى الدهر
 فيا صاحبي ان تُعطَ صبراً فاني نزعتُ يديّ اليوم من طاعة الصبر
 وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه فمبعاد دمع العين مُنقلبُ السفر
 وقد يستولي الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى ييأس المحب من
 صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال بعض الشعراء :

كم استراح إلى صبرٍ فلم يُرحَ صبُّ اليكم من الأشواق في ترح
 تركتم قلبه من حزن فرقتكم لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح
 رُقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على العزاء :

عابت نفسي في هوا فكلم أجدها تقبل
 واطمعت داعيتها اليه فكلم أطمع من يعذل
 لا والذي جعل الوجوه لحسن وجهك تمثّل
 لا قلتُ إن الصبر عذ لك من التصابي اجل

وقال اسحق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل :

تقضتُ لباناتٍ وجد رحيلُ ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
 ومُدتُ أكفُ للوداع فصافحت وفاضت عيونُ للفراق تسيل
 ولا بدّ للالاف من فيض عبرةٍ إذا ما خليلُ بأن عنه خليلُ
 فكم من دمٍ قد طُلَّ يوم تحملت أو انسُ لا يودى لهنّ قتيلُ
 غداة جعلت الصبر شيئاً نسيتهُ وأعولتُ لو أجدى عليّ عويلُ
 ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها هوّى منه بادٍ ظاهرٌ ودخيلُ
 كما نظرت حوراء في ظلّ سِدرةٍ دعاها إلى ظلّ الكيناس مقيلُ

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظهاء عن الماء ، فيقول :

اليك من الأنام غدا ارتياحي وانت من الزمان مدى اقتراحي
 وما اعترضت هموم النفس إلا ومن ذكراك ريحاني وراحي
 فديتك ان صبري عنك صبري لدى عطشي عن الماء القراح
 ولي أملٌ لو الواشون كفوا لأطلع غرسه ثمر النجاح

واعجبُ كيف يغلبني عدوُّ رضاك عليه من أمضى سلاحي
فؤادي من أسمى بك غير خالٍ وقلبي من هوّى لك غير صاحي
فلو أسطيع طرت إليك شوقاً وكيف يطير مقصوس الجناح
ويأسى ابن المدينة على ان لم يُغنه القرب ، ولم يسله البعد ، فيقول :
وقد زعموا ان المحب إذا دنا يعلّ وان النأي يشفي من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا على ذاك قرب الدار خير من البعد
على ان قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بندي عهد
وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الاعراب :

فيا ربّ إن اهلك ولم تروهامتي بليلى امت لا قبرا عطش من قهري
وإن أك عن ليلي سلوت فانما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبري
وان يك عن ليلي غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر



بكاء الشباب

ولعل اشجى ما يمر بخاطر المرء ان يهجره الغيد بعد انصرام الشباب ، والشباب هو شفيح الفتى الى قلوب الحسان ، فاذا مضى فقد اصبح بلا شفيح ، والويل للمفرد المغلوب !

من اجل ذلك تفتن الشعراء ، في بكاء الشباب ، والتنكر للمشيب . فمنهم من تبيض في رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة ، لأن قذى العين غير قليل ، كما قال ابن الرومي :

طرفت عيون الغانيات وربما أمالت إليّ الطرف كلّ مميل
وما شبت إلا شيبة غير انه قليل قذاه العين غير قليل
وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه ، ويعمل نفسه احياناً بأن الشيب في الرأس كالنور على الفصن . ويأسى كثيراً لاحتياجه الى الخضاب ، الذي يراه اشبه بسواد الحداد ، ويكاد يصرخ من خروجه الى الحسان في شعر ميت ، وقلوب حي ، والمحب يتفجر قلبه دائماً بالحياة ! وانظر كيف يقول :

شاب رأسي ولات حين مشيب	وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيباً	ان يرى النور في القضيبي الرطيب
ساءها ان رأت حبيباً اليها	ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النف	س فما انت للصبي بنسيب
ليس يجدي الخضاب شيئاً من النف	ع سوى انه حداد كئيب
لهف نفسي على القناع الذي مَحَّ	وأعقبت منه شرّ عقيب (١)
منع العين ان تقرّ وقرّت	عين واش بنا وعين رقيب

(١) مح القناع بلى . والعقيب البديل .

شَعَرْتُ مَيِّتٌ لَدَيْ وَطَرٍ حَيٍّ كَنَارِ الْحَرِيقِ ذَاتِ اللَّهَبِ
ظَلَمْتُني الْخُطُوبُ حَقَّ كَأَنِّي لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنْ حَسَبِ

وما أروع قوله في السُّخر من الخُضاب :

رَأَيْتُ خُضَابَ الْمَرْءِ عِنْدَ مَشْيِهِ حَدَاداً عَلَى شَرْخِ الشَّيْبَةِ يُبَلِّسُ
وإِلَّا فَمَا يَغْزُو امْرَأَةً بِخُضَابِهِ أَيْطَمَعُ أَنْ يَخْفَى شَبَابٌ مُدَّلسُ
وَكَيفَ بَأَنْ يَخْفَى الْمَشِيبُ لَخُضَابِهِ وَكُلُّ ثَلَاثٍ صَبَحَهُ يَتَنَفَّسُ
وَهَبَهُ يُوَارِي شَيْبَهُ أَيْنَ مَأْوُهُ وَأَيْنَ أَدِيمٌ لِلشَّيْبَةِ أَمْلَسُ

وقال أشجع السامي يوصي بانتهاب اللذات ، قبل ان يقف في سبيلها الهرم
والمشيب :

وَمَا لِي لَا أُعْطِي الشَّبَابَ نَصِيْبَهُ وَغَصْنَاهُ يَهْتَزُّانِ فِي عَوْدِهِ الرُّطْبِ
رَأَيْتُ اللَّيَالِي يَنْتَهِنُ شَبِيْبَتِي فَاسْرَعْتُ بِاللَّذَاتِ فِي ذَلِكَ النَّهْبِ
رَأَيْتُ بَنَاتَ الدَّهْرِ يَخْلِسْنَ لَدُنِّي لَقَدْ حَزَنَ سَلْمَى وَانْتَهَيْنِ إِلَى حَرْبِي
وَقَدْ حَوَّلَتْ حَالِي اللَّيَالِي وَأَمْرَجَتْ عَلَى الرَّأْسِ أَمْثَالَ الْفَتِيلِ مِنَ الْعُطْبِ
وَمَوْتَ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ إِذَا كَانَ ذَا حَالٍ يَصْبُو وَلَا يُصْبِي

وقال آخر في صدوف النساء عن صرعى المشيب :

هَلْ الْأَدَمُ كَالْأَرَامِ وَالْدَّهْرُ كَالدُّمَى مُعَاوِدَتِي أَيَّامُنَّ الصَّوَالِحُ
زَمَانَ سِلَاحِي بَيْنَهُنَّ شَبِيْبَتِي لَهَا سَائِقٌ مِنْ حَسَنَةٍ وَرَامِحُ
وَأَقْسَمَنْ لَا يَسْقِينَنِي قَطْرٌ مُدْنَدٍ لِشَيْبِي وَلَوْ سَالَتْ يَهْنُ الْإِبَاطِحُ

وكان استاذنا المرحوم فقيده اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك كثير
الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود :

مَا تَتَقَضَّى حَسْرَةً مِنِّي وَلَا جَزَعٌ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يَرْتَجِعُ
بِأَنَّ الشَّبَابَ وَنَابَتْنِي بِفَرْقَتِهِ تُخَطُّوبُ دَهْرٍ وَأَيَّامٍ لَهَا خِدَعُ
مَا كُنْتُ أَوْ فِي شَبَابِي كُنْهَ قِيَمَتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
تَعَجَّبْتُ إِنْ رَأَيْتُ أَسْرَابَ دَمْعَتِهِ فِي حُلْبَةِ الْخُدِّ أَجْرَاهَا حَشّاً وَرَجَعُ
أَصْبَحْتُ لَمْ تَطْعَمِي ثَكْلَ الشَّبَابِ وَلَمْ تَشْجَنِيْ بِغَفْصَتِهِ وَالْعَذْرُ لَا يَقْعُ

لا ألحين فتاتي غير كاذبة عين الكذب فما في ودمك طمع
ما بالشبية من وان وإن رفعت إلا لها نبوة عنه ومرتدع
إني لمعترف ما في من أرب عند الحسان فما في النفس منخدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسي لولا اعزيك إن الامر منقطع

ويذكرون ان الرشيد سمع هذا الشعر ، وبكى له ، وأنشد :
أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً وقد صار الشباب الى ذهاب
فليت الباقيات بكل ارض مجمن لنا فنحن على الشباب
ومن التعليل الكاذب قول البحري في مدح المشيب :

عذلتنا في عشقها أم عمرو هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمة ألم بها الشيب ب فريعت من ظلمة في شروق
ولعمري لولا الاقاضي لأبصر ت اتيق الرياض غير اتيق
وسواد العيون لو لم يحاور هُ بياض ما كان بالموقوق
ومزاج الصباء بالماء املى بصبح مُستحسن وغبوق
أي ليل يبهى بغير نجوم او سحاب يندى بغير بروق

لكن ماذا يصنع الاشيب ، إن لم يقالط الحسان بهذه المعاذير ١٩



بلاديا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع . ونتقدم ذلك بقول بعض
الاندلسيين وقد قبل من يهواه :

يا ربّ إن قدرته لمقبلٍ غيري فللمسواك أو للاكؤس
وإذا قضيت لنا بصحبة ثالثٍ يا رب فليك شمة في المجلس
وإذا حكمت لنا بعين مراقبٍ يا رب فليك من عيون النرجس

أست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من ان ينعم بحبيبه سواه ،
فجعل يتمنى ، لو تنفع الاماني ، ان لا يراقبهم غير النرجس ، وان لا يصحبهم
غير الشمعة ، وان لا يقبل محبوبه غير الكأس او المسواك ؟ !

وقد جُنّ العرب بالغيرة جنونا : فتخيّلوا غسان بن جهم ينشد زوجته من
عالم الارواح ، وقد زُفّت إلى غيره بعد موته بقليل :

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمةً ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب حلفت له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحد

وتخيل رواة العرب ان موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد اقبلت
من بعده على اخيه هرون فأنشدها وهي نائمة هذه الابيات :

أخلفت عهدي بعد ما جاورت سكان المقابر
ونكحت غادرةً اخي صدق الذي سماك غادر
لا يهنك الإلف الجديد دُ ولا تم عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا حوصرت حيث غدت صائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القارئ ان يدرك لمَ حملت الفيرة عبد السلام بن
 رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا الشاعر عجيب : فقد ذكروا
 انه اشترى غلاماً وجارية ، ثم شغفاه حباً ، فكان يجلس للشراب والجارية عن
 يمينه والغلام عن شماله !! ثم خشي ان يموت قبلها فينعم غيره بما لهما من روعة
 وجمال : فذبحها واحرقها وصنع من ترابها آيتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة
 الباكية :

اشفقتُ ان يردَّ الزمان بفدوره	او أبتلى بعد الوصال بهجره
قمرٌ قد استخرجته من دجنه	لبليقي واثرتُه من خدره
فقتلته وله عليَّ كرامةٌ	فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائمٍ	والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعدهُ	بالحي منه بكى له في قبره
غصصٌ تكاد تفيض منها نفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي
 ينذر ان نجد احمر منها في الرثاء :

يا طلعةً طلع الحمام عليها	فجنى لها ثمرَ الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شقي من شفتيها
فوحق نعلها وما وطىء الثرى	شيء أعزُّ عليَّ من نعلها
ما كان قبلها لأني لم اكن	أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها	وأنفقت من نظر العيون اليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة ، ولا برهاناً اسطع من
 هذا البرهان !! وكانت السيدة سكينه تعيب على جرير قوله :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام
 وكانت تقول : قاتله الله ما اقساه : هلا قال : ادخلي بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينه بهذا الحب السفاح لطال بكأؤها على صرعى
 الغيرة ، وقتلى الاشفاق !! ولئن كان الجنون فنونا كما يقولون ، فهذا ورب
 الكعبة اغرب فنون الجنون ! وكنانود لو حدثنا التاريخ عن اثر هذه الاعجوبة في
 انفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال ! ألم يكفهم
 ان الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم اليه الفناء ؟ وبعد
 فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا « ديك الجن » وانه في فعلته هذه لشيطان
 مرید !!

هذا ، ومن الشعراء من يغار من عود البشام حين يستاك به الحبيب ، ومن
 المعقد يطوق به الجيد ، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل ، كما قال الشريف :

يا غزال الجزع لو كان علي الجزع لمام
 أحسد الطوق على رجب ديك والطوق لزام
 وأعض الكف إن نال ثناياك البشام
 وأغار اليوم إن مر على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب :

حبيك شفقه ألمه وخامر جسمه سقمه
 وباح بما يُججمه من الاسرار مكتتمه
 أما ترثي لمكتتب حبيك لمح ودومه
 يغار على قميصك حين تلبسه ويتهمه

وكما قال بعض الاعراب :

ارى القميص على ليلي فأحسده

ارث القميص على ما ضم محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، فيكنى عنه ، لئلا تتمتع به الآذان ، كما
 قال البها زهير :

وأُنْزِه اسمك ان تَمُرْ حُرُوفُه
من غيرتي بِمِسامعِ الجُلُاسِ
فأقولُ بعضُ الناسِ عنك كُنْياةٌ
خوفُ الوُشاةِ وانتِ كلُّ الناسِ
وقد يغارُ المحبُ على حبيبِهِ من نفسِهِ ، كما قال أبو تمام :

بنفسي من اغار عليه مني وتحسد مقلتي نظري اليه
ولو اني قد رت طمست عنه عيون الناس من حذري عليه
حبيبٌ بثَّ في قلبي هواهُ وامسك مهجتي رهناً لديه
فروحي عندهُ والجسمُ خالٍ بلا روحٍ وقلبي في يديهِ



الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الاحباب اليهم ، وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ، ولذلك حالات : فمن العشاق من يقبّح لحبيبه المطل والخلف ، حتى يبرّ بوعده ، وينفي بعهده . كقول ابن الأحنف :

كأن لم يكن بيني وبينكم هوّى ولم يك موصلاً بجليلكم حبي
ولم يأتني لأستحي لكم من محدث يحدث عنكم بالملالة والمطلـ
وكقول الطغرائي :

ويا جيرتي بالجزع جسمي بعدكم نحيل وطرفي بالسهاد قليل
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقاً فخان وختمت والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته مطلتم وشر الغارمين مطول
فإن عدتم يوماً تريدون مهجتي تنسّعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يحرم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبّح الإخلاف ، وإنما يرجو وعداً يجلو به كربة قلبه ، ويطفئ به نار جواه ، لو تغنى الوعود !

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر ، وقد صادف في توحشه حي ليلي ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشياً عليه ، وأقبل فتيات من حي ليلي فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه واستندوه إلى صدورهم ، وسألوا ان تقف له وقفة ! فرقت لما رآته وقالت اما هذا فلا يجوز ان افتضح به ثم قالت لجارتها : اذهبي الى قيس فقولي له : ليلي تقراً عليك السلام ، وتقول لك أعزّز علي بما انت فيه ! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي !

فمضت الوليدة اليه واخبرته بقولها فأفاق وجلس ، وقال : أبلغنيها السلام ، وقولي لها هيهات هيهات ! إن دائي ودوائي انت ، وان حياتي ووفاتي لفي يديك ، ولقد وكلت بي شقاء لازماً وبلاءً طويلاً ، ثم بكى ، وانشأ يقول :

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها قريبٌ ولكن في تناوُلها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ على كبدي من طيب ارواحها بردُ
فما زلت مغشياً عليّ وقد مضت أناةٌ وما عندي جواب ولا ردُّ
أقلب بالأيدي واهلي بودهم يُفدُّونني لو يستطيعون ان يفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عارياً ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أدناي ما لي في انقطاعي ورغبتي اليك ثوابٌ منك دينٌ ولا نقد
عديني بنفسي انت وعداً قريباً جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزقتني جنود الحب من كل جانب إذا حان من جند قفول اتى جند

والبيت الأخير اعجوبة من اعاجيب الخيال ، فما زال المحبون صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الحدود ، غزتهم جنود العيون ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعاً حتى ذهبت بلبه ، ولم يبق إلا ان تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المقيم المحزون ولكنه لا يطلب وعداً يطارد به جيوش الاحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعده كأن يهتدي به في ظلمات الشجون ، وانما يُلمح وقد يكون التلميح ، ابلغ من التصريح . فيذكر ان الحسن يحدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول . وانظر قول الابيوردي في هذا المعنى البديع :

وقتك الردي بيض حسان وجوها ومثريّةٌ من نضرة وجهال
طلعن بدوراً في دجى من ذوائب ومستن غصوناً في متون رمال
أرى نظرات الصب يعثرن دونها بأعراف حُجُرٍ او رموس عوال
عرضن عليّ الوصل والقلب كله لديك فاني يبتغين وصالي
ولولاك ما بعث العراق واهله بوادي الحمى والمندلي بضال

خما لنساء الحيّ يضمرن غيرةً سبّتها العوالي ما لهن ومالي
ولو خالفتني في متابعة الهوى يميني ما واصلتها بشمالي
وفيك صدودٌ من دلالٍ اظنه على ما حكى الواشي صدود ملال
وقد يتمنى المحب ان يمرض ليعوده الحبيب . واليك قول ابن الخياط :
احنّ الى سقمي لعلك عائدي ومن كلفني اني احنّ الى السقم
وحتاماً أستشفي من الداء ما به سقامي واستروي من الدمع ما يظمي
فراقاً اتى في إثر هجري وما اذى بأوجع من كلم اصاب على كلم

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم ان من المحبين من
اشقاء المرض ، فلم يسمده العواد . وهل اراه حديث ابن الاحنف وقد لجّ به
المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين :

اهابك ان اشكو اليك وليس لي يدٌ بالذي القى واخفى من الوجد
واني لصادي الجوف والماء حاضراً اراه ولكن لا سبيل الى الورود
وما كنت اخشى ان تكون منيكي بكف اخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت اليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الاحنف الى حجاج
البيت الحرام وقد توقع ان يروا بدار هواه ؟

انظر الى ذلك العليل ، وقد خفي الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء
في فيه بجه ، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وسحر
بسماته ، وان نودي لم يجب بغير الانين ، انظر اليه وقد تمنى جرعة 'مزجت'
بريق حبيبته يحملها اليه الحجاج في زجاجة ! ولو امكن ان تنقل اليه النظرة ،
لرجاهم ان يحملوا اليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجاهم ان
ينقلوا اليه نفمة من نغماتها العذاب ! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم ان
يصوروا مشيتها الفتانة في الضحى والاصيل ! انظر اليه وهو يرجوهم ان يتعللوا
عند اهله فيذكروا ان تلك الجرعة العذبة انما هي من ماء زمزم ! ويحك ، وابن
ماء زمزم الملح الاجاج ، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات ؟ انظر اليه وقد
اوصاهم ان يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فان صادفوه ميتاً فليرشوه على

قبره ! انظر كيف يقول :

ازوار بيت الله مروا يثرب	لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولولهم يا اهل يثرب أسعدوا	على جلب للحادثات جليب
فإنا تركنا بالعراق اخا هوّى	تنشّب رهنا في حبال شعوب
به سقم اعيا المداوين علمه	سوى ظنهم من مخطىء ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجّه	وان نحن نادينا فقير مجيب
خذوا الي منها جرعة في زجاجة	ألا انها لو تعلمون طيب
وسيروا فان ادر كنتم في حشاشة	لها في نواحي الصدر وجس ديب
فرشوا على وجهي افق من بليتي	يشيكم ذو العرش خير مثير
فان قال اهلي ما الذي جئتم به	وقد يحسن التعليل كل اريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم	لنشفية من دائه بذكوب
وان انتم جئتم وقد حيل بينكم	وبيني يوم للنون عصب
وصرت من الدنيا الى قعر حفرة	حليف صفيح مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا	قتيل كعاب لا قتيل حروب

وكان ابن الاحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئاً ، ولا يخاف شيئاً ، وكل مناه ان يعلم فاتنوه انه يحبهم ، وان يسمعوا صوت ما يجد ، وانه لمطلب زهيد ، ولكنه قد يصبح صعب المنال ، وانظر هذه الابيات التي يندر ان نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاه من اذكوا نار جواه ، وتركوه يتلوى ويتململ ، فوق حجر الهوى وجمر الصدود :

ابكي الذين اذاقوني مودتهم	حتى اذا ايقظوني للهوى رقدوا
واستنفضوني فلما قمت منتصباً	بثقل ما حلوني في الهوى قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم	قد كنت احسبهم يوفون ان وعدوا
أخرجن من الدنيا وجبكم	بين الجوانح لم يشعر به احد
حسي بأن تعلموا ان قد احبكم	قلي وان تسمعوا صوت الذي اجد

ومن حسن الاشارة قول ابراهيم بن المهدي :
يا غزالاً لي اليه شافعٌ من مُقلتيه
والذي اجللتُ خديّ به فقبّلت يديه
بأبي وجهك ما اكثرتُ حسّادي عليه
اناضيفُ وجزاء الضيف إحسانٌ اليه

والاحسان الذي يرجوه هذا الشاعر يذكرنا بقول بعض الاعراب :

آل ليلي ان ضيفكم واجدٌ بالحيّ مذ نزلنا
امكنوه من ثنيتها لم يُردْ خيراً ولا عسلاً

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون :

يا هلالاً تتراءى هـ نفوسٌ لا عيونُ
عجباً للقلب يقسو منك والعطفُ يلين
ما الذي ضرك لو سرّ بمرآك الحزين
وتلطّفت بصبّ حينه فيك يحين
فوجوه اللطف شتى والمعاذير فنونُ

وما اوجع الاسى في قول ابن هانيء :

يا بنت ذي البرد الطويل مجادُه اكذا يجور الحكم في ناديك
عيناك ام مغناك موعدا وفي وادي الكرى ألقاك ام واديك
منعوك من سينة الكرى وسروا فلو عثروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكهّل في جفونك حلية تالله ما بأكفهم كحلوك
وجلوك لي إذ نحن غصنا بانه حتى اذا احتفل الهوى حججوك

ويندر ان تجد بين الادباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية :

عقيليّةٌ امّا ملأتُ إزارها قد عصّ واما أخصرها فبتيل
تقيّظ اكناف الحمى ويظّلها بنعمان من وادي الاراك مقيّل
أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ، وكلا ليس منك قليل

فيا نُخلة النفس التي ليس دونها
ويا من كتمنا حبه لم يُطع به
أما من مقامٍ اشتكي غربة النوى
فؤادي اسيرٌ لا يُفكٌ ومهجتي
ولي مقلةٌ قرحى لطول اشتياقها
فديتك أعدائي كثيرٌ وشوقي
وكنت إذا ما جئت جئت بعلقة
فما كل يومٍ لي بأرضك حاجةٌ
صحائفٌ عندي للعتاب طويتها
فلا تحملي ذنبي وانت ضعيفةٌ
ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع :

أجبنني إن تفضلتَ
أأنسى الدهر ما جادت
وارسم للننى حداً
واقنع بالردي ورّداً
وأرضى باللظى مثوى
على المسكين بالردّ
به عيناك من وعدٍ ؟
وما لجواي من حدٍ ؟
وغيري سائغ الوردِ ؟
ووجهك جنة الخلدِ ؟

وفياً حافظاً اشقى
وصباً والهاً افنى
فيا ويلاه من حبٍ
أعدّ لعله جهدي
ليسعدَ ناقض العهد
ليبقى جاحد الوُدّ
حملتُ بلاءه وحدي !
فيصعقُ بطشه جهدي

الحنين

هل أتاك حديث الصَّمة بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ، وكان لها حجاب ،
فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثيراً فلم يعنه ، فأمر عشيرته
فأسعفوه ، ثم ساق الأبل إلى عمه ، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل أباك
ان يبدلها لك . فسأل أباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضنَّ أبيه وإباء عمه قطع
عقلها وخلها فماد كل بغير إلى اهله ... ويروى ان أباه اعطاه تسعة وتسعين
بغيراً فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها . فقال الصمة : والله ما رأيت
الأم منكماً ، واني للأم منكماً جميعاً ان اتمت بينكما . ثم رحل إلى الشام .
فقال ابنة عمه : والله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته بغير !!

تأمل ايها القارىء هذه القصة الوجيهة ، واكملها بما لديك من وثبات الخيال ،
ولا تطالبني بأكثر من هذا الايجاز ، فانما اتخذته مقدمة لدرس قصيدة الصمة في
الحنين ... الم تر اليه وقد طالت غربته ، فعبث الشوق بقلبه ، واعتادته ذكرى
احبابه واوطانه . فقال يعاتب نفسه ، ويجاور فؤاده :

امن ذكر دارٍ بالرقاشين اصبحت بها عاصفات الصيف بدءاً ورجعاً
حننت إلى رثاً ونفسك باعدت مزارك من رثا وُثعبا كما معا
فما حسن ان تأتي الامر طائعا وتجزع ان داعي الصباية اسمعا
ثم اخذ يخاطب رفيقيه - وقد بالغوا في لومه واطالا في تأنيبه - فقال :

ألا يا خلسيلي اللذين توأصيا بلومي الا ان اطيع وأتبع
قفا إنه لا بد من رَجْعِ نظرة يمانية شتى بها القوم او معا
لغتصب قد عزّه القوم امره حياءً يكف الدمع ان يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتثيسهم فقال :

فان كنتم ترجون ان يذهب الهوى يقيناً ونزوى بالشراب فننقعا
فردوا هبوب الريح واغثروا الجوى إذا حلّ ألواذ الحشا فتمنعا

ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وان اشتط في عذله ، وبالغ في لومه ،
بقادر على نسيانك ، اوسلوانك :

ظنّ الهوى لبسة تبلى فيخلعها فكان في القلب مثل القلب في البدن

ثم عاد الى رفيقيه يسألها الإسعاد والإنجاد :

قفا ودعنا نجداً ومن حلّ بالحمى وقلّ لنجدٍ عندنا ان يُودّعا

مسكين ! وقل لنجد ان يودّع ! اذن فما كنت صانعاً لو انصفته ؟ اكنت
تغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك اعداؤك ، ويرثي لك حاسدوك ؟ ام
كنت تقتل نفسك جوّى وحزناً ؟ ثم قال :

بنفسي تلك الارض ما اطيب الربى وما اجمل المصطاف والمترّعا
وليست عشيتات الحمى برواجع اليك ولكن خلّ عينيك تدمعا
اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واستبق دمعك لا يودي البكاء به واكفف مدامع من عينيك تستبق
فيما الشئون وان جادت بباقية ولا الجفون على هذا ولا الحدق

ثم اخذ يصف موقفه وقد حال (البشر) بينه وبين احبابه واوطانه . فقال :

ولما رأيت (البشر) اعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحننّ نزعاً
بكنت عينيّ اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبلتا معا

وقد رأيت من الادباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندي من دلائل الوله
وعلائم الصبابة المضلة . ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العنّت :

تلفت نحو الحيّ بحتى وجدتني وجعّت من الإصغاء ليتاً واخذعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان . وقد تبعه الشريف
الرضي فأبدع واجاد في قوله :

ولقد مررت على ديارهم وربوعها بيد البلى نهّب

فوقفت حتى ضجّ من الغَبْرِ نضوى ولجّ بعذلي الركب
وتلفّت عيني فذ خفّيت عني الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصّمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر
النعب . فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة .
ثم قال الصّمة في تنمة الحديث عن جواه :

وأذكر أيام الحمى ثم أنشني على كبدي من خشية ان تصدعا
ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصّمة . وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله :
أضمّ على قلبي يديّ مخافة إذا لاح لي برق من الشرق لامع
وهل ينفع القلب الذي بان ألفه إذا طار شوقاً ان تضم الأضالع
ومن الحنين قول ابن عبد ربه :

ودّعني بزفرة واعتناق ثم نادت متى يكون التلاق
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق افطع يوم ليمتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرثل فيأخذ في ذكر المعاهد والمهود ، وقد يظعن حبيبه
ويقيم ، فيأخذ في الإعوال عليه ، والحنين اليه ، وهناك من غرائب الهوى
وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست اقل من سابقتها جوّى وحزناً ، بل ربما
كانت اكثر حيرة : وهي ان يلتقي الركبان وفيها محب ومحبوب ، ثم يفترقان
قبل ان يتلاقى الصبان : ويجتمع الحلائن ، فلا يدري العاشق اي عهد يبكي ،
واي حظ يندب ، كما لا يعرف ايلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقبياً ، ام يشكو
دهره لان حبيبه سار وخلفه ، ام يعول إعوالاً مبها لا يعرف مصدره ، ولا

يفهم مبعثه ، والشعر في هذا المعنى اقرب الى الذكري منه الى الحنين ، ومن
الجيد فيه قول الارجاني :

استودع الله قوماً كيف ابعدنا ققلب الدهر منهم حين ادانا
زموا الغداة مطاياهم لفرقتنا لما أنخنا للقيام مطايانا
لم تشتبك بعد أطناب الخيام لنا ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من احبابه نظراً إذ غادر الدمع منه الجفن ملاًنا

ولإني موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبته ،
او خلف احبابه وسار ، فمن الاول قول سبط التعاويذي :

اتعود ايامي برامة بعد ما سكنت يجرعاء الحمى آرامها
وأحلبها البين المشتة محلة بعُدت مراميهما وعز مرامها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت نفس يزيد على الورود هيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي لبعادهم ناراً يُشبِضرامها
بنتم فلا عيني تجف غروها أسفاً ولا كبدي يُبل أوامها
جودوا لعين المستهام بهجة فعمسى تملكم لها احلامها
لا تتلفوا بالبين هجة عاشق سيان بين حميمها وحامها
اعداه من هيف الخصور فحولها يوم النوى ومن العيون سقامها

ولم اجد في هذا المعنى اشجى واوجع من قول بعض المتيمين :

لبكاء هذا اليوم صنعت مدامي وكذا العزيز لكل خطب يُذخر
يا ساكني وادي العقيق فدتكم عين مدامها عقيق احمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم لفظاً ولم يحسن لعيني منظر

والبيت الاخير مأخوذ من قول ابن ابي ربيعة :

لم يحجب القلب شيئاً مثل حبكم ولم تر العين شيئاً بعدكم حسناً

فأما شعر من نأوا عن احبابهم ، وخلوا معاهد انهم ، فهو كثير ، ومن
جيده قول الابيوردي يتشوق إلى احبابه وقد خلاهم ببغداد :

ألا ليت شعري هل اراني بغيضة	ابيت على ارجائها واقيل
هواء كأيام الهوى لا يغبه	نسيم كالحظ الغائيات عليل
وعصر رقيق الطرقتين تدرجت	على صفحته نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وترابها	تضوع مسكاً والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شبيهة	وليلي قصير والهجير اصيل
فقل لأخلاني ببغداد هل بكم	سلو فغندي رنة وعويل
ترنخني ذكراكم فكأنما	تميل بي الصبباء حيث اميل
لئن قصرت أيام انسي بقربكم	فليلي على نأي المزار طويل

وقال اعرابي من بني عقيل :

احن إلى ارض الحجاز وحاجقي	خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافمي	بشيء ولكني على ذاك انظر
افي كل يوم نظرة ثم عبدة	لعينيك يجري ماؤها يتعذر
متى يستريح القلب إما مجاور	حزين وإما نازح يتذكر

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف :

سقى الله أياماً لنا قد تتابع	وسقياً لعصر العامرية من عصر
ليالي أعطيت البطالة مقودي	تمر الليالي والشهور ولا ادري

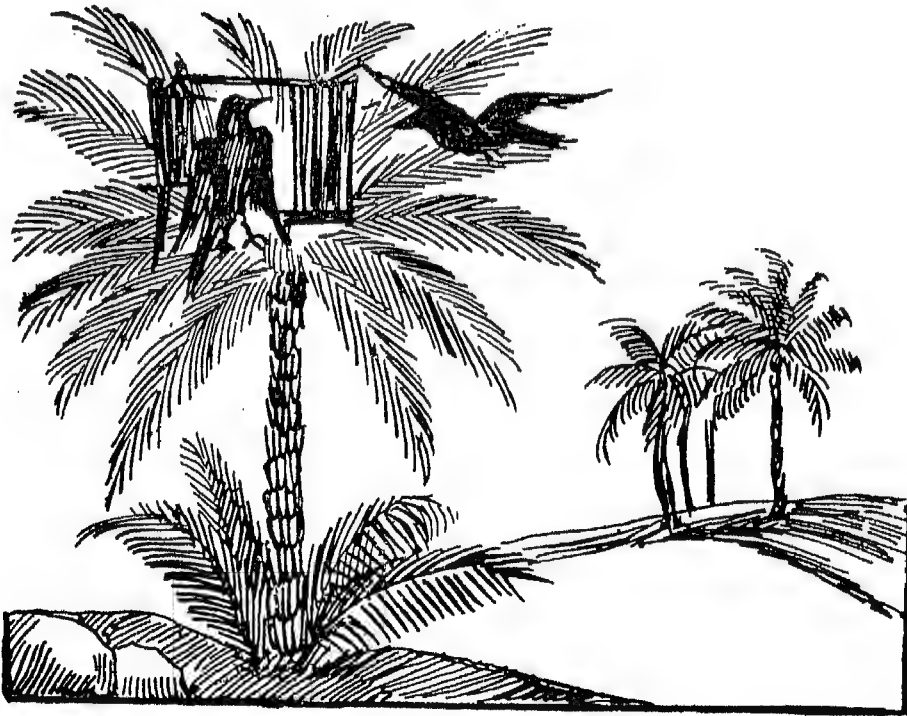
ومن شائق الحنين قول ابن الدمينه :

ألا لا أرى وادي المياه يشيب	ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الوادين وانتي	لمشتهر بالواديين غريب
احقاً عباد الله ان لست وازداً	ولا صادراً إلا علي رقيب
ولا زائراً فرداً ولا في جماعة	من الناس إلا قيل انت مرئوب
وهل ربية في ان تحن نجبية	إلى ألفها او ان يحن نجيب
وان الكتيب الفرد من جانب الحمى إلى	وإن لم آت له الحبيب

لك الله اتي واصل ما وصلتني ومثني بما اوليتني ومثيب
واخذ ما اعطيت عفوا وانني لأزور عما تكرهين هيوب
فلا تتركي نفسي شعاعا فانها من الوجد قد كادت عليك تذوب
ولاني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع :

تجمل يا سماح ودع ملامي وكن عون الحب المستهام
ففي أسيوط لو تدري حبيب هجرت لبعده طيب المنام
أسييت له يحن إلى لقائي ودون مرامه كيد اللثام
إذا ما الليل جن ونام صحي مشت نار التذكر في عظامي
سلام أيها النائي سلام وهل يغني عن اللقيا سلامي



الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب :

يحسني لا يحسبك يا عليلُ ويكفيني من الألم القليلُ
تعدّاك السقام إليّ إني على ما بي لشدّته حمولُ
إذا ما كنت يا أملي صحيحاً فحالفتني وسالمك النحول

وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعرية من يقول :

وحسبك حصرة لك من حبيب رأيت زمامه بيديّ عدوّ

وقد يتعنى المحب لو ألقى المرض محبوبه ، ورّسع كيف شاء في الاجسام
الدميمة ، كما قال سُحَيْم :

ماذا يريد السقام من قبر كلُّ جمالٍ لوجهه تبّع
ما يرتجى ، خاب من محاسنها أماله في القبحار مُتسع
لو كان ينبغي الفداء قلت له ها أنا دون الحبيب يا وجّع
وما أرقّ ما يقول ابن الاحنف :

إن التي هامت بها النفس عاودها من سُقمها نكس
كانت إذا ما جاءها المبتلى أبرأه من راحيها اللبس
و بأبي الوجه المليح الذي قد عشقته الجنّ والإنس
إن تكن الحمى أضرت به فربما تنكشف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله :

أما والله لو تجددين وجددي لقلقل ما وجدت إذا حشاك
وقاك الله كل أذى بنفسي وعجل يا ظلوم لنا شفاك

وأنشد أبو الحسن بن البراء :

فديتك ليلي مُدَّ مَرَضَتَ طَوِيلٍ ودمعي لما لاقيت فيك مَمُولُ
أأشرب كأساً أم أُسرُّ بِـلَذَّةٍ ويعجبني ظيُّ أغنُّ كَحِيلِ
وقضحك سني أو تجف مدامعي وأصبو إلى هوى وانت عليل
شكلتُ إذأ نفسي وقامت قيامتي وغالت حياتي عند ذلك غول
وقال يوسف بن ابراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد اصابته حمى

ترك على شفته بثوراً :

حاشاك ان تمرض حاشاك قد اشتكى قلبي لشكواكا
إن كنت محموداً ضعيف القوى فأنني أحسدُ حمّاكا
ما رَضِيتُ حمّاك إذ باشرتُ جسمك حق قبّلت فاكا
وهذا الشعر وإن كان خطاباً لوزير إلا أن فيه هجاء التشبيب !



الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ، كما قال المؤمل :

حُلمتُ بكم في نومي فغضبتُم ولا ذنب لي إن كنت في النوم احلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم إذا ما أتاني النوم والناس نؤم
تُصارمني والله يعلم انني أبرئ بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي انها نذرت دمي وما لي بحمد الله لحم ولا دم
برى حبها لمحي ولم يُبق لي دماً وإن زعموا اني صحيحٌ مسلّم
فلم أر مثل الحبّ صحّ سقيمه ولا مثل من لم يعرف الحبّ يسقم
ستقتل جلدأً بالياً فوق اعظم وليس يبالي القتل جلدٌ واعظم

ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام :

يا جفونا سواهما أعدمتهما لذة النوم والرفقاد جفون
بلى الجسم لكن الشوق حيٌّ ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن الله في العباد منايا سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء :

فداؤك من أوردته منهل الردى وورث الردى للعاشقين يطيب
وما مات حق أنحل الحب جسمه فلم يبق فيه للتراب نصيب
والأرجاني يذكر ان طيفه لو زار حبيبته لجل شخصه اليه لنحوه ويقول :

يروي ضاحي الوجنات دمعي ويعدل عن لهيب جوّي دخيل
وما نفمي وإن هطلت غيوثٌ إذا اخطأ أنمكة المحول

همُ نَقَضُوا عَهْدِي يَوْمَ بَانُوا
وَفَوَا بِالْهَجَرِ لَمَّا أُوْعِدُونِي
وَفِي الرِّكْبِ الْهَلَالِينَ خَشَفُ
أَصَابَ بِطَرْفِهِ الْفَتَانَ قَلْبِي
بَخَلْتُ وَقَدْ حَظَيْتَ بِصَفْوَدِّي
وَبِتَّ لَوْ اسْتَزَرْتَ الْيَوْمَ طَيْفِي
وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى شَفَاءِ

ومنه من يذكر انه ضنى حتى لو تعلق بعود ثمام ما تأوّد ، كما قال
الحسين بن مطير الاسدي :

خَلِيلِي هَلْ لَيْلِي مُؤَدِيَةٌ دَمِي
وَكَيْفَ تَقَادُ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ لَمْ تَقُلْ
وَلَنْ يَلْبَثَ الْوَاشُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً مَا يَسْرِنِي
وَلِي نَظْرَةٌ بَعْدَ الصَّدُودِ مِنَ الْجَوَى
فَحَتًّا مَتَى هَذَا الصَّدُودُ إِلَى مَتَى
فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتَ مِنِّي مَعْلُوقٌ

إِذَا قَتَلْتَنِي أَوْ أَمِيرٌ يُقِيدُهَا
قَتَلْتُ وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَيْهَا شَهِودُهَا
إِذَا لَمْ يَكُنْ صُلْبًا عَلَى الْبَرْزِ عَوْدُهَا
بِهَا تُحْمَرُ أَنْعَامُ الْبِلَادِ وَسُودُهَا
كَنْظَرَةٍ ثَكَلَى قَدْ أَصِيبَ وَحِيدُهَا
لَقَدْ شَفَّ نَفْسِي هَجَرُهَا وَصُدُودُهَا
بَعُودُ ثَمَامٍ مَا تَأَوَّدُ عَوْدُهَا

وقال الحارثي في وصف آصار النحول :

سَلَبَتْ عِظَامِي لَحْمَهَا فَتَرَكْتَهَا
وَأَخْلَيْتِهَا مِنْ نَحْوِهَا فَكَأَنَّهَا
إِذَا سَمِعْتَ بِاسْمِ الْفِرَاقِ تَقَعَّقَتْ
خَذِي بِيَدِي ثُمَّ ارْفَعِي الثَّوْبَ تَنْظُرِي
فَمَا حِيلَتِي إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ رَحْمَةٌ

مَجْرَدَةٌ تَضْحَى لَدَيْكَ وَتُخَصَّرُ
أَنَابِيِبُ فِي أَجْوَافِهَا الرِّيحُ تَصْفَرُ
مَفَاصِلُهَا مِنْ هَوْلٍ مَا تَنْتَظَرُ
بِي الضَّرَّ إِلَّا أَنَّنِي أَتَسْتَرُ
عَلَيَّ وَلَا لِي عَنْكَ صَبْرٌ فَأَصْبِرُ

ويقول ابن الاحنف :

انظر إلى جسدٍ أضرَّ به الهوى

لولا تقلب طرفه دفنوه

وتابعه المتنبي فقال :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا غطاطتي إياك لم ترني
وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد ارسل صورته إلى بعض
احبابه :

سكنت إلى النوى ونسيت صباً نحيلاً كاد يقتله الحنين
فلما لم يجد في الحب صبراً ولم ترحم جوانحه الشجون
تفاني في النحول فلو تبدى لما فطنت لخطرته العيون
وها هو كالحيال أفاك يسري مخافة أن تُظنّ به الظنون
فأكرم نزلهُ وارحم ضناه فان فؤادك الحرم الامين

وقال بعض الشعراء :

إن الذي أبقيت من جسمه يا متلف الصبّ ولم يشعر
صبايةً لو أنها دمة تجول في عينيك لم تقطر^(١)



(١) الصباية بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء .

أماي الهبين

وللمحبين امان كثيرة ، لو تنفع الاماني ، فمنهم من يتمنى الكأس من يسه
 جميل ، بين ندمان يُعاطونه اطايب الحديث ، كما قال العطوي :
 وكما قالوا تمّن فقلت كأسٌ يطوف بها قضيبٌ من كتيب
 ونُدمانٍ تساقطني حديثاً كلحظ الحبّ او غصّ الرقيب
 وإنها لأمنيةٌ عزيزة المنال !

ومنهم من يسامر الاماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه ، كما قال ابن الزيات :
 يا داني الدار في الاماني ونازع الدار في العيان
 ذكرك دانٍ وانت ناءٍ فأنّت ناءٍ وانت دانٍ
 نفسك موصولةٌ بنفسي وانت كالنجم من مكاني
 لي فكّرُ فيك معجبات في اللفظ صِفِرُ من المعاني
 تجري ضروبٌ من التمني في كل يوم على لساني
 اقول حتى كأن عيني تراك من حيث لا تراني
 ويتمنى ابن الاحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته ، ويقول :

مجلسٌ يُنسب السرور اليه بمحبٍ ريحانهُ ذكراكِ
 كلما دارت الزجاجة زادة هُ اشتياقاً وُحرقةً فبكاكِ
 لم يَنلِكَ الرجاء ان تحضريني وتجاقت أمنيّتي عن سواكِ
 فتمنيت ان يُغشّيني الا هُ نَعاساً لعلّ عيني تراكِ
 وربما تمنى الحب لو أُعير سلوة من قلب حبيبه ، كما قال البحتري :
 ودِدْتُ وهل نفس امرئٍ معلومةٍ إذا هي لم تعطِ الهوى من ودادها
 لو ان سليمى اسجحت او لو انه أُعير فؤادي سلوةً من فؤادها
 وما اظرف النشوة التي تمنّاها البحتري حين قال :

هل لي سبيلٌ الى الظهران من حلب ونشوة بين ذاك الورد والآس
امدٌ كفي لأخذ الكأس من رشٍ وحاجتي كلها في حامل الكأس
بقرب انفساه اشفي الغليل إذا دنا فقرّبها من حرّ انفا سي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية ابي صخر الهذلي ، فقد تمنى ان يجتمع
بحبيته فوق امواج البحر ، ومن دونها اللجج الخضر والاهوال ، واليك أروع
هذه القصيدة البديعة :

لللي بذات الجيش دارٌ عرفتها واخرى بذات البين آياتها سطرُ
كأنما مِلَّانَ لم يتغيّرَا وقد مرّ للدارين من بعدنا عصرُ
وقفت برسميّها فعيّ جواؤها فقلت وعيني دمعها سربٌ همرُ
ألا ايها الركب المخبون هل لكم بساكن اجزاء الحمى بعدنا خُبرُ
فقالوا طويئنا ذاك ليلافان يكن به بعض من تهوى فما شعر السُفرُ

•

اما والذي ابكى واضحك والذي أمات واحيا والذي امره الأمرُ
لقد كنت آتيتها وفي النفس هجرها بتاتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فأبتهت لا أعرفُ لدي ولا نُكرُ فأبتهت لا أعرفُ لدي ولا نُكرُ
وانسى الذي قد كنت فيه هجرتها كما قد تنسّي لبّ شاربها الخمرُ
وما تركت لي من شذاً اهتدي به ولا ضلّعة إلا وفي عظمها وقر
وقد تركتني احسد الوحش أن أرى اليقين منها لا يروعها الذّعُرُ
ويمنعني من بعض إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذر
وخافةُ اني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر
واني لا ادري إذا النفس اشرفت على هجرها ما يبلغنّ بي الهجر
تكاد يدي كُتدي إذا ما لمستها وينبت في اطرافها الورق النضر
واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطرُ
تنسيت من حيي عليّة انما على رَمثٍ في البحر ليس لنا وفر
على دائمٍ لا يعبر الفلك موجهٌ ومن دوننا الاهوال واللجج الخضرُ

فنفضي همَّ النفس في غير رِقبةٍ
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها
فيا حبها زدني جوًى كلَّ ليلةٍ
هجرتك حتى قلت لا يعرف القلي
صدقت انا الصب المصاب الذي به
فيا حبذا الاحياء ما دمت فيهم
واليك شتى الاماني في قول جميل :

جزتك الجوازي يا بئين ملامه
ألا ليت شعري هل أبين ليلةً
فقد تلتقي الاواء من بعد ياسة
ويحسب نسوان من الجهل انني
فأقسم طرفي بينهن سوية
فليت وشاة الناس بيني وبينها
وليتهم في كل ممسى وشارق
إذا جثتها يوماً من الدهر زائراً
يصد ويغضى عن هواي ويحتني
فأصرمها خوفاً كأنني مجانب
يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ
لكل حديث بينهن بشاشة

وغاية الغايات في هذا الباب قول ابي بكر بن عبد الرحمن الزهري :

ولما نزلنا منزلاً طسَّه الندى
أنيقاً ويستأننا من النور حالياً
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى فتمنينا فكنت الامانيا

المهية والخضوع

والشعراء يهابون الحسن ، ويضلون سبيل الرشدين حين يراجعون أرباب
وانظر قول أبي فراس :

أراميتي كل السهام مُصيبةٌ وانت لي الرامي فكلي مقاتلُ
وإنني ليقدامٌ وعندك هائبٌ وفي الحيّ سحبانٌ وعندك باقل
يفضلُ عليّ القول أن زرت دارها ويعزب عني وجه ما أنا فاعل
وحجتها العليا على كل حالةٍ فباطلها حقٌ وحقي باطل

وما ارق قوله في عكس هذا المعنى :

وَمَغْضٍ لِمَهَابَةٍ عَنْ جَوَابِي وَإِنْ لِسَانَهُ الْعُضْبُ الصَّقِيلُ
أُطَلَّتْ عَتَابُهُ عَتَتْهُ وَظُلْمًا فَدَمَعَتْ ثُمَّ قَالَ : كَمَا تَقُولُ أ

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن ، قول الحسن بن وهب :

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبني رعدةً أهتز منها وأسكنُ
ليهنك أني أشجع الناس كلهم لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب :

أهابك إجلالاً وما بك قدرةٌ عليّ ولكن ملء عين -
وما هجرتك النفس أنك عندها قليلٌ ولكن قلّ منك نه

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف :

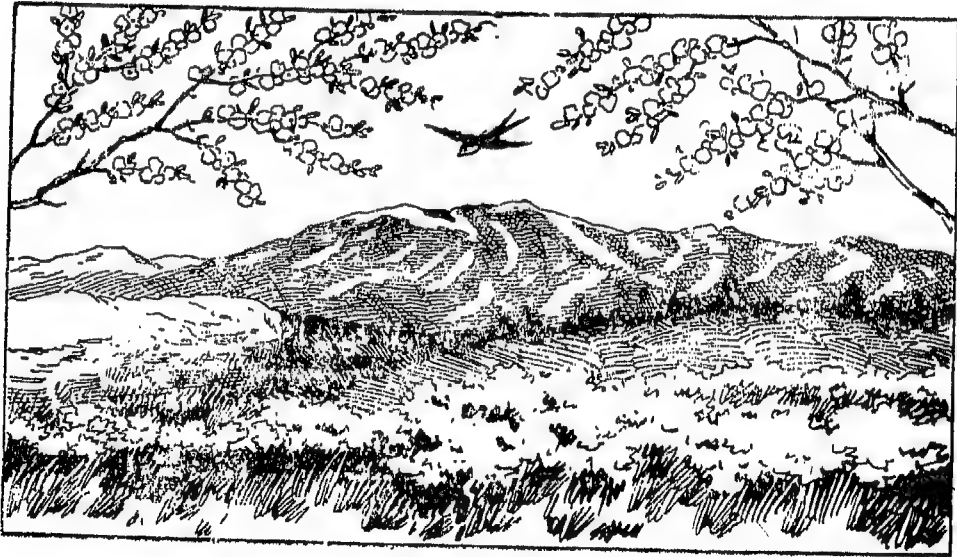
كم ذميل اليكم ووجيفٍ وصدودٍ عنا لكم وُصدوفٍ (١)

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير

وغيراً بكم لو ان غراماً جرّ نفعاً للواجد المشغوف
 صبوة ثم عفة ما أضرنا بكم في كل خلوة بالعفيف
 هجرونا ولم يلاموا وواصلنا على مؤلم من التعنيف
 وطلبنا الوفاء حتى إذا عزّ رضينا بالمطل والتسويق
 كيف يرجو الكثير من راضه الشوق إلى ان رضي ببذل الطفيف

وانظر قول ابن الرومي :

أضعتني فرعيتي وخفتني فوفيت
 أطعتني في الأعداء وكلهم قد عصيت
 فكيف أصبحت غضبي لما رضاك أتيت



الرضى بالتقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأمانى ، وهي كواذب
لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف :

كفى حزنًا أنى وفوزاً ببلدةٍ مقيانٍ في غير اجتماعٍ من الشملِ
أما والذي ناجى من الطُّور عبده وأنزل فرقاناً وأوحى إلى النحلِ
لقد ولدت حواءَ منكِ بليةً عليّ أقاسيها وخبلاً من الخبلِ
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم بشيء سوى حُسن المِوَاثَةِ والبذلِ
واني ليرضىني الذي ليس بالرضى وتقنع نفسي بالمواعيدِ والمطلِ

وفي هذا المعنى يقول الشريف :

لك الله هل بعد الصدود تعطفُ وهل بعد ريعانِ البعَادِ تدانِ
وما غرضي أنى أسومك خُطّةً كفاني قليلٌ من رضاك كفاني
وقال بعض الظرفاء :

أنا راضٍ منكم بأيسر شيءٍ يرضيه من عاشقٍ معشوقٍ
بسلام على الطريق إذا ما جمعنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليلي الأخيلية :

وهل تبكين ليلي إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوايحُ
كما لو أصاب الموت ليلي بكيتها وجاد لها دمعٌ من العين سافح
وأغبطُ من ليلي بما لا أناله بل كلُّ ما قرّت به العين صالح
وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية :

أليس قليلاً نظرةً إن نظرتها اليك ؟ وكلا ليس منكٍ قليلُ

وجاراه في هذا المعنى من قال :

إن ما قلّ منك يكثر عندي وكثيرٌ ممن تحبُّ القليلُ

وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل :

واني لأرضى من بشينة بالذي لو أبصره الواشي لقرّت بلائله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضي أو آخره لا نلتقي وأوائله

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض :

وإذا اكتفى غيري بطيف خياله فأنا الذي يوصاله لا أكتفى
وأبدع منه قول ابن الرومي :

أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تدان
وألثم فاه كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ليرويه ما تلثم الشفتان
كان فؤادى ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان



شفاء الحب

وقد يمرض الحب ، فيفتن الناس في وصف دوائه ، على انه لا يبرأ الا بقرب
من يحب . وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء :

وما هي إلا ان أراها فجاءة فأبتهت حق ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئي
وأنسى الذي أزمعت حين تغيب
ويظهر قلبي عذرها ويعينها عليّ فإلي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفاءها

قريباً وهل ما لا يُنال قريب
فواكبدي أمست رفاتاً كأنما يُلذعها بالموقدات طيب
عشية لا عفراء منك بعيدة فتسلو ولا عفراء منك قريب
لئن كان برد الماء حرّاً ناصدياً إليّ حبيباً إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب :

أيازينة الدنيا التي لا ينالها مناي ولا يبدو لقلبي صريعها
بعيني قذاة من هواك لو أنها
تداوى بن أهوى لصحّ سقيمها
وُبرء قذاة العين ان لم يكن لها
طبيب يداوي نظرة تستديمها
فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة .

وإن كنت أحياناً كثيراً ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية :

قل لمن لست أُسمِّي بأبي أنت وامي
بأبي انت لقد اصبح ت من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي إذ اذاب الحب لمي
وارادوا لي طبيباً فاكتفوا مني بعلمي
من يكن يحبل ما أأ قى فان الحب سقمي
ان روحي لبغدا د وفي الكوفة جسمي



القلب الخافق

نذكر هنا ألواناً من تصور الشعراء الخفوق القلب ، فمنهم من يشبهه بتنزي،
الكرة ، كما قال بشار :

يروّعه السرار بكل شيء مخافة ان يكون به السرارُ
كان فؤاده ككرة تنزّي حذار البين لو نفع الحذارُ

ومنهم من يشبهه بالوشاح القلق ، فوق الحصر الدقيق ، كقول مسلم بن الوليد :

أزكى من المسك أنفاساً وبهجتها أرق ديباجة من رقة النفس
كان قلبي وشاحها اذا خطرت وقلبيها قلبها في الصمت والخرس^(١)
تجري محبتها في قلب عاشقها تجري السلامة في أعضاء منتكس

وابن الاحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب بالدف ، ويقول :

يبين لساني عن فؤادي وربما أسراً لساني ما يبوح به طرفي
أعينك أن تشقى بقتلي فأنني أخاف عليك الله ان سمعتني حتفي
اذا القلب، أو ما ان يطير صباة ضربت له صدري وألزمته كفي
كان جناحيه اذا هاج شوقه يداقينة هوجاء تضرب بالدثف

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض ، كقول احد الاعراب :

ألا بآبي من ليس والله ناعمي بنيل ومن قلبي على النأي ذاكره
ومن كبدي تهفو اذا ذكر اسمه كهفو جناح ينفض الطل طائرهم

وقد وضع هذا المعنى في قول نصيب :

(١) القلب بضم القاف هو السوار

كان القلب ليلة قيل يُغدى
قطاةٌ عزها شرك فباتت
لها فرخان قد تُركا بوكري
إذا سمعا هبوب الريح نصّا
فلا في الليل نالت ما ترجي
ولا في الصبح كان لها براح

وابن ميادة يذكر ان قلبه أمسى وكان يداً خبثت به ، أي قبضت عليه
وسامته العذاب ، ويقول :

كان فؤادي في يدٍ ضبثت به
وأشقى من وشك الفراق وانني
فوالله ما أدري أيغلبني الهوى
فان أستطع أغلب وان يغلب الهوى



(١) فص الطائر مم بالنهوض

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هبّ من نومه ، أو أوى إلى فراشه
كالذي يقول :

أآخر شيء أنت في كل هجمة وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدك عندي ان أقيك من الردى وودّك كما المزن غير مشوب

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد :

تحيّرت في أمري واني لواقف أجيل وجوه الرأي فيك وما ادري
أعزم عزم اليأس فالموت راحة أو أقنع بالإعراض والنظر الشرير
وإني وأن اعرضت عنك لمنطوي على 'حرق' بين الجوانب والصدر
إذا هاج شوقي مثلتك لي المنى فألقاك ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر
تصبرت مغلوباً واني لموجع كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول :

ضحكت ولوتدري من ما بي من الهوى بكيت لحزون الفؤاد كئيب
لمن لم ترح عيناه من فيض عبرة ولا قلبه من زفرة ونحيب
لمستأنس بالهم في دار وحشة غريب الهوى بالك لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بان وانقضى وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا على غفلة من كاشح ورقيب
ليالي يدعونا الصبا فتجيبه ونأخذ من لذاته بنصيب

الى ان جرى صرف الحوادث في الهوى فبدل منا مشهدٌ بمغيبٍ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحرّ منامنه صاحب زهر الآداب حين قال
« وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت الكتاب عن ذكره » وبهذه
الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ، وكـم تمنى ان لا يخلط المؤلفون بين
الادب والاخلاق !

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما 'تمثل' لي ليلى بكل سبيل



أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد ، وما يقاسون فيه من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف :

وبين ذوائب العقيدات ظبي قصير الخطو في المرط المذال
ربيبٌ إن أريغ إلى حديث نوار إن أريد إلى وصال
فهل لي والمطامع مُرديات دنو من لمى ذاك الغزال
لقد سلبت ظباء الدار لبّي ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي معاجلي بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهرأ أروّع بالصدود فلا أبالي
وكيف أفيق لا جسدي بناء عن البلوى ولا قلبي بسالي
يرمخني اليك الشوق حتى اميل من العين إلى الشال
كما مال المعافر عاودته حيا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكركم ارتياح كما نشط الأسير من العقال

وعبد الله بن مصعب يأسى على أن لم يعدّه احبابه في مرضه ، مع أنه يعود
كلبهم اذا مرض ! ولهذا لقب (عائد الكلب) حين قال :

مالي مرضت فلم يعدني عائد منكم ويمرض كلبكم فأعود
وأشد من مرضي عليّ صدودكم وصدود عبدكم عليّ شديد

ويرى أبو النواس ان قرب الدار لا ينفع مع الصدود ، ويقول :

لقد عاجلت قلبي جنانٌ بهجرها وقد كان يكفيني بذاك وعيد
رأيت تداني الدار ليس ينافع اذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الاحنف يترك العتب على الصدا ، لئلا يبرز بصد جديد ، ويقول :

تركت صدودها وصبرت نفسي بطول تجرع الغيظ الشديد
مخافة ان تجدد لي صدوداً وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضع هذا المعنى من قبل في قول ابي صخر الهذلي :

ويعنني من بعض إنكاري ظلمها إذا ظلمت يوماً وان كان لي عذر
ومخافة أنني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحتري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله :

ظلمتني تجنباً وصدوداً غير مرتاعة الجنان لظلمي
ويسير عند القتول اذا ما أثمت في ان تبوء بإثمي
أجد النار تستعار من النار روينشو^(١) من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيت من ذلك الصدا ففرضاه أم حقيقة عزم
وبحق ان السيوف لتنبو تارة والعيون باللحظ تدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع :

لقد صدودنا كم كما صدودكم فهل ندمتم كما ندمنا

(١) يقال : نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ : أي قوي وزاد .

التلفت الى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم الى معالم الحب : عند الوداع ،
وبعد الفراق .

قال بعض الرواة : مررت بحمي الربذة فاذا صبيان يتقاسمون ^(١) في الماء ،
وشاب جميل الوجه ملوَّح الجسم قاعد ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام . وقال :
من أين وضع الراكب ؟ قلت من الحمى ! قال ومتى عهدك به ؟ قلت راحاً . قال
وأيّن كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشاعر ^(٢) . فألقى نفسه على ظهره ،
وتنفس الصعداء . فقلت نفساً ^(٣) حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمى تحله	من المزن ما تُروى به وتسيم
وان لم اكن من قاطنيه فانه	يحلّ به شخص عليّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه	لديّ وان شط المزار نعيم
ومن لامني فيه حبيب وصاحب	فرد بغيظٍ صاحبٍ وحميم
تم سكت سكتة كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأثروا بقاء فصبته على	
وجهه فأفاق وأنشأ يقول :	

إذا الصب الغريب رأى خشوعي	وأنفاسي تزين بالخشوع
ولي عينٌ أضرت بها التفاني	الى الاجزاء مطلقه الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسي	كما أنس الوحيد الى الجميع
والشاهد في الايات الاخيرة	

(١) يتقاسمون : يتغطون . يقال قمسته في الماء غططه فيه (٢) المشاعر منابت العرفج
(٣) نفساً : تشقق وانصدع

وما أوجع تلفت القلب بعد المين في قول الشريف :

دخان ولا من نارهن وقود ^١	تلفت حتى لم بين من بلادكم
طوال الليالي نحوكم ليزيد	وان التفات القلب من بعد طرفه
رويداً وقال القلب اين تريد	ولما تدانى البين قال لي الهوى
وانت على قرب المزار عميد	أتطمع ان تساو على البعد والنوى
غداة جزعنا الرمل قلت أعود ^(١)	ولو قال لي الغادون ما انت مشتبه
وأعلام خبت ، انني لجليد !	أأصبر والوعساء بيني وبينكم

وانظر قوله من كلمة ثانية :

وعشر ^٢ وعشر نحوكم من روائيا	ترحلت عنكم لي امامي نظرة
واعلاق وجدي باقيات كما هيا	ومن حذر لا أسأل الركب عنكم
فلا بد ان يلقي بشيراً وناعيا	ومن يسأل الركبان عن كل غائب

(١) جزع من باب منع : تقال جزع الارض قطعها

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى إذا راعتهم مرارة النوى ، علموا ان الصد كان
حلو المذاق . وفي هذا المعنى يقول ابن الخطيب :

كفى حزناً أنى أبليت معذباً	بنار هموم ليس يخبو سعيها
وان عدوي لا يُراع وانني	أبيت سخين العين وهو قريها
واني لرهمن الشوق والشمل جامع	فكيف إذا حثّ الحداة اميرها
وما زلت من اسر القطيعة باكياً	فمن لي غداة البين أنى اسيرها
وكنيت ارى ان الصدود منية	يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا	وجدت الليالي كان حلواً مريها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيها	وحسبك من حال يُذمّ صبورها

وقد اصاب في تشبيه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح حين قال :

احنّ الى سقمي لعلك عائدي	ومن كلفٍ أنى أحسن الى السقمـ
وحتمّ استشفّي من الداء ما به	سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق اتى في إثر هجر وما أذى	بأوجع من كلمٍ اصاب على كلمـ

وحنين الحب الى سقمه ، املا في ان يعودّه جيبه ، يذكرنا بقول كثير :

يود بأن يُمسي سقياً لعلها إذا جمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك ، او يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه .
وقد تزوره بلمح العين . كما قال ابن الدمينه :

ألا 'حُب' بالبيت الذي أنت هاجرُهُ وانت بتلحاحٍ من الطرف زائرُهُ
فيا لك من بيتٍ لعينيٍّ مُعجبٍ واحسنُ في عيني من البيت عامره
أصدُّ حياءً أن يلجَّ بي الهوى وفيك المنى لولا عدوُّ أحاذره

وفي هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

تدانت بقومٍ عن ثناء زيارةٍ وشطَّ بليلى عن دُئوٍ مزارها
وإن مقيماتٍ بمنعرج اللوى لأقرب من ليلي وهاتيك دارها
والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه ، بالماء يُمنع من وروده الظمآن ،
فنهجد منهم من يقول :

إني وإياك كالصادي رأى نهلاً ودونه هوةٌ يخشى بها التلقا
رأى بعينيه ماءً عزٍّ موردهُ وليس يملك دون الماء مُنصرفا
ومن يقول :

وإني على هجران بيتك كالذي رأى نهلاً رِيًّا وليس بناهلٍ
يرى برد ماءٍ ذيد عنه وروضةً برود الضحى فينانةً بالأصائل
وقد صور جميل هذا المعنى حين قال :

وما صادياتٌ حُمنَ يوماً وليلةً على الماء يخشين العِصِيَّ حواني
حوائم لم يصدرن عنه لوجهٍ ولا هنَّ من برد الحياض دواني
يَرَيْنَ حباب الماء والموت دونهُ فهنَّ لأصوات السُّقاةِ رواني
بأكثر مني غلةً وصبايةً اليك ولكنَّ العدوَّ عراني

وقال ابو حمية النميري او العباس بن الاحنف :

كفى حزنًا أني أرى الماء بادياً لعيني ولكن لا سبيل إلى الورْدِ
وما كنت أخشى ان تكون منيتي بكفٍّ أعز الناس كلهم عندي

حادوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال ابو نواس :
 احب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما ألام
 ويدخل حبها في كل قلب مداخل لا تغلغلها المدام

وفي هذا المعنى يقول محمد بن ابي امية :
 وحدثنني عن مجلس كنت زينه رسول امين والنساء شهود
 فقلت له رد الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث أريد
 وقد ظرف بها زهير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول ، وقال :

يا من يهدد بالصدو	دي نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك في الهوى	لكنني أتعلم
قل للعذول لقد أطل	ت لمن تلوم وتعذل
عانت من لا يرعوي	وعذلت من لا يقبل
غضب العذول اخف من	غضب الحبيب واسهل

وما ابدع قول ابي فراس :
 أساء فزادته الاساءة حطوة حبيب على ما كان منه حبيب
 يعد علي العاذلون ذنوبه ومن اين للوجه المليح ذنوب ؟
 والرقيب اخو اللائم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف الشعر في الالم
 لقرب الرقيب قول ابن المعتز :

وأبلائي في محضر ومغيب	من حبيب مني بعيد قريب
لم ترد ماء وجهه العين إلا	شرقت قبل ريتها برقيب

وقوله :

قد دنت الشمس للمغيّبِ وحن شوقي الى الحبيبِ
طوبى لمن عاش عُشر يومٍ له حبيبٌ بلا رقيبِ

وما اظرف من يقول :

لسهم الحب جرحٌ في فؤادي وذاك الجرح من عين الرقيبِ
يوحى ناظره بنا ويحكي مكان الكاتبين من الذنوبِ
فلو سقط الرقيب من الثريا لصبّ على محبٍّ او حبيبِ

وانظر كيف ضرب المثل بنفلة الرقيب في قول احد الطرفاء :
يسقيك من كفه مُدماً ألذّ من غفلة الرقيبِ
كانها إذ صفت ورقّت شكوى محبٍّ الى حبيبِ

وقد كلف سعيد الوراق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء ، وفيهم
يقول :

بربك يا حمامة دير زكّى وبالأنجيل عندك والصليبِ
قفي وتحملي مني سلاماً إلى قبرٍ على عُصنٍ رطيبِ
جاء جماعة الرهبان عني فقلبي ما يقرّ من الوجيبِ
وقالوا رابنا إمام سعدٍ ولا والله ما أنا بالمريبِ
وقولي سعدك المسكين يشكو لهيب جوّى آخر من اللهيبِ
فصّله بنظرة لك من بعيدٍ إذا ما كنت تمنع من قريبِ
وإن أنا مت فاكذب حول قبري محبّ مات من هجر الحبيبِ
رقيبٌ واحدٌ تنغيص عيشٍ فكيف بمن له ألفا رقيب ؟

انه لا بد مقتول ، كما قتل صاحب هذه الابيات !!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره ، كلما اشتاق اليه ، كما قال الحكم بن قنبرة :

ان كنت لست معي فالذكر منك معي يردك قلبي وان غيبت عن بصري
العين تبصر من تهوى وتفقدته وناظر القلب لا يخلو من النظر
وقال آخر :

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى لئن غبت عن عيني ما غبت عن قلبي
تزينيك عين الوهم حتى كأنني أناجيك من قرب وان لم تكن قربي
وقال ابو عثمان الناجم :

لئن كان من عيني احمد غائباً فما هو عن عين الضمير بغائب
له صورة في القلب لم يقصها النوى ولم تتخطفها اكف النواشب
إذا ساءني يوماً شحوط مزاره وضافت بقلبي في نواه مذاهي
عطف على شخص له غير نازح محبته بين الحشا والثرائب
ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب :

وليل وصلنا بين قطريه بالشرى وقد جد شوق مطمع في وصالك
أطلت علينا من دجاء حنادس أعدن الطريق النهج وعر المسالك
فناديت يا أسماء باسمك فأنجلت واسفر منها كل أسود حالك
بنا أنت من هادي نجونا بذكره وقد نشبت فينا اكف المهالك
منحتك اخلاصي واصفيتك الهوى وإن كنت لما تخطريني ببالك
وفي مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلي :

صب يحث مطاياهُ بذكركم وليس ينساكم إن حل أو سارا
لو يستطيع طوى الايام فحومكم حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقربكم والقرب يلهب في احشائه النارا

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء ، وقد اثبت اخيراً احد الاطباء
الالمان ان موطن الحب هو الكبد ، ونريد ان نذكر هنا طرفاً من حديث العرب
عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا الرأي الجديد .. قال بعض
الاعراب :

فيا كبدأ يحمي عليها وانما مخافة هيضات النوى لحفوق
أقام فزيق من أناس يودهم بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزون يظل وقلبه رهين ببضات الحجال صديق

وبجري ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال :

لا الهوى بعدكم مناخ ولا ما ء اللوى إذ هجرتموه بورد
والفؤاد الذي عهدتم جموحاً راضه طول جوركم والتعددي
ما تريدون من دلائل شوقي غير هذا الذي أجن وأبدي
كبد كلما وضعت عليه راحتي قال انت قاذح زندي
وجفون جرين مدأ وماء الب بحر يرتاح بين جزر ومد

وكذلك جمع بينها البحتري حين قال :

وما كبدي بالمستطيمة للأذى فأسلو ولا قلبي كثير التقلب

وابن الأحنف حين قال :

ما للكوم التي بالقلب من اسى فاصبر على اليأس يا مستقبل الياس
ما اسمع الناس في عيني واقبحهم إذا نظرت فلم ابصر في الناس
حتى متى كبدي حرى معطشة ولا يلين لشيء قلبك القاسي
ياموري الزند قد اعيت قوادحه اقبس إذا شئت من قلبي بقباس

بكاء الملاح

نذكر للقارىء شذرات من الشعر في بكاء الملاح ، وما أغزر الدمع في بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب :

قال ابن عبد ربه : كان لمعلّى الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضّاح قال : أدركت معلّى الطائي بمصر واعطيت بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها . فلما دخل عليها قالت له : بعثني يا معلّى ؟ ! قال نعم . فقالت : والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما يملك بالدنيا وما فيها !! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام . فقال يرثيها :

ياموتُ كيف سلبتني وصفا	قدّمتها وتركتني خلفا
هلاّ ذهب بنا معاً فلقد	ظفرت يدك فسممتني خسفا
وأخذت شقّ النفس من بدني	فقبّرتني وتركت لي النصفاً
فعليك بالباقي بلا أجل	فالموت بعد وفاتها أغفى
ياموت ما أبقيت لي أحداً	لما رفعت إلى البرلى وصفا
هلاّ رحمت شباب غانية	ريّا العظام وشعرها الوحفا ^(١)
ورحمت عينيّ ظبية جعلت	بين الرياض تناظر الحشفا
تقضي إذا انتصفت مرابضه	وتظلّ ترعاه إذا أغفى
فاذا مشى اختلفت قوائمه	وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيراً في المشي مُرتعشاً	يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنها (وصف) إذا جعلت	نحوي تحير محاجراً وطفا ^(٢)

(١) الوحف : الاسود

(٢) وطف جمع اوطف ووظفاء وهو الماء الكثير أو الدمع : توصف به السحب والعيون .

يا موت انت كذا لكل اخي
خلفتني فرداً وبنيت بها
أسكنتها في قعر مظلمة
بيتاً اذا ما زاره أحد
لا نلتقي أبداً معاينة
لبست ثياب الحتف جارية
فكأنها والنفس زاهقة
يا قبر أبقى على محاسنها
إلف يصون ببره الإلفا
ما كنت قبلك حاملاً وكفا^(١)
بيتاً يصافح تربه السقفا
عصفت به أيدي البلى عصفا
حتى نقوم لرَبنا صفا
قد كنت ألبس دونها الحتفا
غصن من الريحان قد جففا
فلقد حويت البر والظرفا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الابيات :

أقول لقبر زوته متلماً
لقد غيبوا تحت الثرى قعر الدجى
عجبت لعين بعدها ملت البكا
وقال ابو تمام وقد ماتت جارية له :
سقى الله برّد العفو صاحبة القبر
وشمس الضحى بين الصفائح والقفور
وقلب عليها يرحم راحة الصبر

جفوف البلى اسرعت في الغصن الرطب
لقد شرقت في الشرق بالموت غادة
أقول ، وقد قالوا استراحت لموتها
لها منزل تحت الثرى وعهدتها
وخطب الردى والموت ابرحت من خطب
تبدلت منها غربة الدار بالقرب
من الكرب روح الموت شر من الكرب
لها منزل بين الجوانح والقلب

وما اجل قوله من كلمة ثانية :

يقولون هل يبكي الفقى الحريصة
وهل يستعيض المرء من خمس كفه
اذا ما أراد اعتاض عشراً مكانها
ولو صاغ من حر اللجين بنانها

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء :

ما أولع الدهر في تصرّفه
اطار قمرية الغناء عن الأر
بكل زين له ومفتخر
ض فأبي القلوب لم تطير

(١) الوكف : الظلم

بستان يا حسرتا على زهر
بستان اضحى الفؤاد في وله
بستان مامنك لا مريء عوض
ان لم اكن متفانقرضت فكم

فيك من اللهو بل على ثمر
يا نزهة السمع منه والبصر
من البساتين لا ولا البشر
من مودة للفؤاد في الذكر

وما ارق قوله في هذه القصيدة :

يا غضة السن يا صغيرته
أني اختصرت الطريق يا سكوني
أبعد ما كنت باب مبتهيج
كل ذنوب الزمان مغتفر
الله ما ضمنت حفيرتها
اضحت من الساكني حقائقهم
لو علم القبر من أتيح له
لا تحفر القبر غير محتفر

امسيت احدي المصائب الكبير
الى لقاء الاكفان والخفر
لنفس اصبحت باب معتبر
وذنبه فيك غير مغتفر
من حسن مرأى وطيب مختبر
سكني الغوالي مدا من السرر
لا تحفر القبر غير محتفر

واحب لو تأمل القاريء ما في هذا الشعر من سمو الخيال .

وكان مرة بن عبد الله مغرمًا بفتاة من قومه يقال لها ليلى بنت زهير ،
وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها الى راذان وماتت هناك ،
فقال مرة فيها كثيرًا من الشعر الموجه . كقوله :

أيا ناعيني ليلى أما كان واحد
ويا ناعيني ليلى لجلت مصيبة
ولا عشتا الا حليفني بليّة
فأشتت والايام فيها بوائق

من الناس ينعاها الي سواكا
بنا فقد ليلى لا أميرت قواكا
ولا متحق يشتري كفننا كما
بموتكما اني احب زدا كما

وقوله .

كأنك لم تفجع بشيء تعدّه
ولم ترؤسا بعد طول غضارة
سقى جاني راذان والساحة التي
ولا زال خصب حيث حلت عظامها

ولم تصطبر للنائبات من الدهر
ولم ترمك الأيام من حيث لا تدري
بها دفنوا ليلى ملث من القطر
براذان يسقي الغيث من هطل غمر

وان لم تكلمنا عظامٌ وهامةٌ هناك واصداً بقين مع الصخر
 وكان لاسحق الموصلي غلام جميل يقال له زياد ، وهو الذي يقول فيه :
 اذا ما زيادٌ علّني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هديرُ
 خرجت أجراً الذيل زهواً كأنني عليك امير المؤمنين امير
 ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه :

فقدنا زياداً بعد طول صحابةٍ فلا زال يسقي الغيثُ قبرَ زياد
 ستبكيك كأسٌ لم تجد من يديرها وظمان يستبطي الزجاجة صادي
 وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ، وكان عبد
 المجيد هذا من اجل الفتيان وآدبهم واطرفهم ، وله مع ابن مناذر حديث طويل
 ذكره صاحب الاغانى ، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين
 فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية :

كلُّ حيٍّ لاقى الحمام فمودي ما لحيٍّ مؤمل من خلودِ
 لآتِهاب المنون شيئاً ولا تبقي على والدٍ ولا مولودِ
 ولقد تترك الحوادث والايا م وهياً في الصخرة الصيخود^(١)
 ولو ان الايام اخلدن حياً لعلاء اخلدن عبد المجيدِ
 ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفافٍ وجودِ
 ويحّ أيدٍ جثت عليه وايدٍ دفنته ! ما غيّبت في الصعيد !
 وأرانا كالزرع يحصده الدهرُ فمن بين قائمٍ وحصيدِ
 وكأنا الموت ركبٌ مخبؤ ن سراعاً لنهلٍ مورودِ
 ان عبد المجيد يوم لقوى هد ركناً ما كان بالهدودِ
 هد ركني عبد المجيد وقد كذت بركنٍ أنوء منه شديد

(١) الصيخود : الشديدة

وبعبد المجيد تامور نفسي
وبعبد المجيد شلت يدي اليم
حين تمت آدابه وتردّي
فسقاء ماء الشبية فاهتز
وكأني ادعوه وهو قريب
فلئن صار لا يحيب لقد كا
يا فتى كان للمقامات زيناً
لهف نفسي! أما أراك وما عند
كان عبد المجيد سم الاعادي
عاد عبد المجيد رزماً وقد كا
خنتك الود لم أمت كمدأ به
لوفدى الحي ميتاً لفدت نف
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز
لأقيم مائتاً كنجوم اللي
موجعات يبيكين للكبد الحر
ولعين مطروقة ابدأ قا
كلما عزك البكاء فأنفد
لفتى يحسن البكاء عليه
فبرغمي كنت المقدم قبلي
كنت لي عصمة وكنت سباء

عثرت بي بعد انتعاش جدودي^(١)
نى وشلت به بين الجود
برداء من الشباب جديد
اهتز الـغصن الندي الأملود^(٢)
حين ادعوه من مكان بعيد
ن سميعاً هشاً اذا هو نودي
لا أراه في الحفل المشهود
دك لي ان دعوت من مردود
ملء عين الصديق رغم الحسود
ن رجاء لريب دهر كنود
دك اني عليك حق جليد
سك نفسي بطارفي وتليدي
ن عليه لأبلغن مجهودي
لـ زهرأ يلطمن حر الحدود
ي عليه وللـفؤاد العميد^(٣)
لـ لها الدهر لا تقرّي وجودي
ت لعبد المجيد سجلاً فعودي
وفتى كان لامتداح القصيد
ويكرهي دليت في الملحود
بك تحيا ارضي ويخضر عودي

(١) تامور النفس حياتها

(٢) الاملود : الناعم الرقيق

(٣) العميد الذي صرعه الحزن

وأغرم يعقوب بن الربيع بجارية تسمى (ملك) ومكث في طلبها سبع سنين ، حتى رق ماله ، وجأه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده ستة اشهر وماتت فقال يبكيها :

لله أنيسة فجمعت بها ما كان ابعدا من الدنس
أتت البشارة والنعي معا يا مقرباً مأتمها من العرس
يا ملك ! نال الدهر فرصته فرمى فؤاداً غير محترس
أبكيك ما ناحت مطوقة تحت الظلام تنوح في العكس
وقال فيها :

ليت شعري بأي ذنب لملك
الذنب حقدته كان منها
أم لأمني لسخطها ورضاها
إنما حسرتي إذا ما تذكر
لم أزل في الطلاب سبع سنين
فاجتمعنا على اتفاق وقدر
اشراً ستة صحبتك فيها
وأفاني منك النعي مع البش
كان هجري لقبرها واجتنائي
أم لعلي بشغلها عن عيائي
حين وارت وجهها في التراب
ت عنائي بها وطول طيلاني
أتأتى لذلك من كل باب
وغنينا عن فرقة باصطحاب
كن كالحلم أو كلع السراب
رى فيا قرب اوبى من ذهاب
وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية :

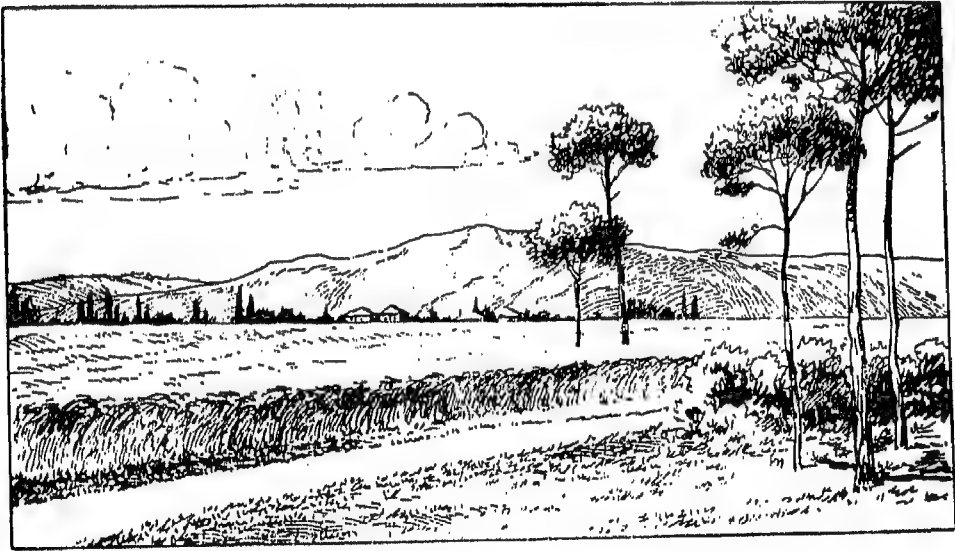
حق إذا فتر اللسان وأصبحت
وتسهلت منها محاسن وجهها
رجع اليقين مطامعي يأساً كما
وقد وصف غربته من بعدها فقال :

فجمعت بملك وقد أينعت وتمت فأعظم بهامن مصيبة

(١) المتلس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة

فأصبحت مغتربا بعدها واضحت بجحوان مُلك غريبه
 أراني غريبا وان اصبحت منازل أهلي مني قريه
 عطفت على اختها بعدها فصادفتها ذات عقل أديبه
 فأقبلت أبكي وتبكي معي بكاء كئيب يحزن كئيبه
 وقلت لها مرحبا مرحبا بوجه الحبيبة أخت الحبيبه
 سأصفيك ودي حفاظا لها فذاك الوفاء بظهر المغيبه
 أراك كمثلك وان لم تكن لملك من الناس عندي ضريبه^(٢)

والشعر في بكاء الملاح كثير ، ولكن حب الايجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا
 المقدار ، وما هو بالقليل .



(١) ضريبة : شيبه

بكاء الحلائل

واوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل ، والحليلة المعشوقة متاع
عزيز ! فمن ذلك قول احد الفتيان في بكاء امرأته ، وكان بها من المغممين :

أطأ التراب وانت رهن حفيرة هالت يداي على صدائك ترائبها
انني لأغدُر من مشى ان لم أطأ بجفون عيني ما حيت جناها

قال ابن رشيقي : ومن جيد ما رُئي به النساء واشجاء ، واشده تأثيراً في
القلب ، واثارة للحزن ، قول محمد بن عبد الملك الزيات في ام ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمّه يبيتان تحت الليل ينتحيان
وبات وحيداً في الفراش تحشّه بلابل قلب دائم الخفقان

يقول فيها بعد ابيات :

ألا ان سَجَلوا واحداً قد أرقته من الدمع اوسَجَلين قد شفياني
فلا تلحيانني ان بكيت فأنما أداوي بهذا الدمع ما تريان
وان مكاناً في الثرى خطّ لحدّه لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل انتما ان عجت منتظران

ومن اشجى الشعر رثاء قوله في هذه القصيدة :

فهبتني عزمت الصبر عنها لانني جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الاجر حسبة ولا يأتسي بالناس في الحدان
ألا من أمنّيه المنى وأعدّه لعترة أيامي وصرف زمانني
ألا من اذا ما جئت اكرم مجلسي وان غبت عنه حاطني ورعاني

ولم أر كالأقدار كيف يصبني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترتي زوجها ولم يكن دخل بها :

أبكيك لا للنسيم والانس بل للمالي والرمح والفرس

أبكى على فارس فجعت به أرملني قبل ليلة العرس

يا فارساً بالعراء مطرحاً خائته قواديه مع الحرس

ما لليتامى اذا هم سغبوا وكل عان وكل محتبس

واني لأسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية ، مع انه من

دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء !



لوعة الشوق

نمتع القارىء في هذا الباب بألوان من سحر الحديث ! عن تغفل الشوق في
طبيات الفؤاد . فمن ذلك قول احد الشعراء وقد اشتاق الى ارض جلق ، وتمنى
لو كحل اجفانه بترابها :

وان اصطباري عن معاهد جلق
سقى الله ارضاً لو ظفرت بترابها
غريب فما اجفى الفراق واجفاني
كحلت بهامن شدة الشوق اجفاني

وقال ابو بكر بن سعادة يتشوق الى قرطبة :

اقرطبة الغراء هل لي اوبة
سقى الجانِبَ الغربي منك غمامة
اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
لياليك اسحار وارضك روضة
وقعق في ساحات دوحاتك الرعد
وتربك في استنشاقه عذبر ورد

واني ليبيكيني قول الشريف :

ذكرت الحمى ذكر الطريد محله
واين الحمى لا السدار بالدار بعدهم
سلام على الاطلال لا عن جنابة
نشدتكم هل زال من بعد اهل
نعم عادني عيد الغرام ونبتت
وطارت بقلبي نفحة غضوية
نظرت الكئيب الايمن اليوم نظرة
وايقظت للبرق الليالي صاحباً
أأنت معيني للقليل بنظرة
معاذ الهوى لو كنت مثلي في الهوى
يُنادي زيادة العاطشات ويُرجع
ولا مريع بعد الاحبة مريع
ولكن يأساً حين لم يبق مطمع
زرود وهل زالت طول واربع
علي الجوى دار بميشاء بلقع
تنفسها حال من الروض ممرع
ترد الى الطرف يدمى ويدمع
بذات النقا يخفى ميراً ويلمع
فنبكي على تلك الليالي ونجزع
إذا لدعاك الشوق من حيث تسمع

هناك الكرى ، إني من الوجد ساهر
فلا لب لي إلا تناسك ساعة
ألا ليت شعري كل دارٍ مُشتة
وانظر كيف يقول :

وما حائثات يلتفتن من الصدى
إذا قيل هذا الماء لم يملكوا لها
بأظما إلى الأحباب مني وفيهم
فيا صاحبي رحلي اقلا فأنني
ويا مُزجي التّضو الطليح عشيّة
وهل أنا غادر أنشد النبلة التي
وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول :

خذوا نظرة مني فلاقوا بها الحمى
ومروا على أبيات حيّ برامة
وقولوا الجيران على الخيف من منى
ومن حل ذلك الشعب بعدي وأرشقت
ومن ورد الماء الذي كنت وارداً
فوالله فيكم لي على الخيف شهقة
صفا العيش من بعدي لحي على النقا
فيا جبل الريان إن تعرّ منهم
ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا
أأنكرتم تسليمنا ليلة النقا
عشيّة جارا نبي بعينه شادن
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطه
فيا ليتني لم أعلّ نشراً اليكم
ولم أدر ما جمع وما جرّنا منى
ويا ويح نفسي كيف زايدت في مها
ونجداً وكثبات اللوى والمطاليا
فقولوا لديغ يبتغي اليوم راقيا
تراكم من استبدلتم بجواريا
لواظظه تلك الظباء الجوازيا
به ورعى الروض الذي كنت راعيا
تذوب عليها قطعة من فؤاديا
حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فاني سأكسوك الدموع الجواريا
نسيتم وما استودعتم الود ناسيا
وموقفنا نرمي الجمار لياليا
حديث النوى حتى رمى بي المراميا
فيا راميا لا مسك السوء راميا
حراماً ولم أهبط من الأرض واديا
ولم ألق في اللاقين حيا يمانيا
بذي البان لا يُشرّين إلا غواليا

ويقول الابوردي يصف شوقه الى حبيبته :

وأقسمُ بالبيتِ الرحيبِ فناءهُ وبالْحَجَرِ المثلثِ والحِجْرِ والرُّكنِ
لأنْتُ إلى نفسي احب من الغنى وذكرك أحلى في فؤادي من الأمن

ويصور الحارث بن خالد شوقه الى عائشة بنت طلحة يشوق الغريق إلى النجاة ، ويقول :

يا أمَّ همران ما زالتْ وما برحتْ بنا الصبابة حتى مسَّنا الشفقُ
القلبَ فاق اليكم كي يلاقكم كما يتوق إلى منجاته الغريقُ

وانك لتلمس حرارة الشوق في قول العذري :

لو جُزَّ بالسيف رأسي في مودتكم لمَّ يهوي سريعاً نحوكم رأسي
ولو لي لي تحت أطباق الثرى جسدي لكنت أبلى وما قلبي لكم ناسي
أو يقبض الله روعي صار ذكركم روحاً أعيش به ما عشت في الناس
لولا نسيمُ الذكراكم يُروِّحني لعدت محترقاً من حرِّ أنفاسي

والشوق يحمل ابن الدمينه على ان يحمده لحبيبته ذكرها له بالمساءة ويقول :

أرى الناس يرجون الربيع وانما ربيعي الذي ارجو نوالُ وصالك
أرى الناس يخشون السنين وانما سنِّي التي اخشى صروفُ احتمالك
لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرَّني أني خطرت ببالك
ليتهنك إمساكي بكفي على الحشا ورقراق عيني رهبةً من زِيالك

وانظر لوعة الشوق في قول احد المتيمين :

اقول لاصحابي وهم يعدلونني ودمع جفوني دائم العبرات
بذكر ميني نفسي قبلوا إذا دنا خروجي من الدنيا جفوف لهاقي

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح إلى السلوان ، ولكن أين إلى السلوان السبيل ؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ .

صحا عن طيلاب البيض قبل مشيبه	وراجع غض الطرف فهو خفيض
كأنني لم أرع الصبا ويروني	من الحيّ احوى المقلتين غضيض
دعاني له يوماً هوّى فأجابه	فؤاداً إذا يلقي المراض مريض
لمستأنسات بالحديث كأنه	تهلّل عُزّ برقهن وميض

وقال الشريف :

هي سلوة ذهبت بكل غرام	والحب نهب تطاول الايام
ولقد نضحت من السلوان وبرده	حرّ الجوى فبردت أيّ ضرام
من بعد ما أظلم الغليل جوانحي	وأطال من ملل الزلال أوامي
لا يدع العذال نزع صباقي	بيدي حسرت عن الغرام لثامي
قد كانت الصبوات تعصف مقودي	فالآن سوف أطيل من إجمامي
هيات يخفضني الزمان وانما	بينني وبين الذل حدّ حسامي

وظاهر هذا الشعر ان اصحابه نزعوا عن الحب طائعين . وفي مقابل هذا المعنى يقول ابراهيم بن العباس :

وعلمتني كيف الهوى وجهلته	وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
واعلم مالي عندكم فيردني	هواي الى جهلي فأرجع عن علمي

ويقول ابن الاحنف في اليأس من السلوان :

تجنب يرتاد السلوان فلم يجد	له عنك في الارض العريضة مذهباً
فعاد الى ان راجع الوصل صاغراً	وعاد إلى ما تشتهين وأعتباً

ويقول من كلمة ثانية :

كم قد تجرّعت من غيظٍ ومن حرقٍ إذا تجددَ حزنٌ هوّنَ الماضي
وكم سخطت وما باليتُم سخطي حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضي

ويقول أيضاً ابراهيم بن العباس :

لمن لا أرى اعرضت عن كل من أرى وصرت على قلبي رقيباً لقائله
أدافعه عن سلوةٍ وأردّه حينئذٍ الى اوصابه وبلايه

ويقول ابن أذينة :

ان التي زعمت فؤادك ملأها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها التعم فضاغها بلباقةٍ فأدقها واجلها
حجبت تحتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا واقلها
واذا وجدت لها وساوس سلوةٍ شفع الضمير الى الفؤاد فسلبها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع :

ولما نسيتُم ودّنا وگرامنا ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا
جعلنا نغض الطرف عنكم وعندنا من الشوق نارٌ لا تُطيق لها وقدا



غدر الغواني

ولا بد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي طالما يغدر فيها النساء . وانا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعاً غادرات ، ويقول :
فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجيّة نفس ، كل غانية هند
ويقول كثير في السُّخر من عهد النساء :

ألا انما ليلى عصا خيزرانة اذا غمزوها بالاكفّ تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن عليك شجاً في الحلق حين تبين
وان هي اعطتك اللبان فانها لآخر من خلانها ستلين
وان حلفت لا ينقض النأي عهدا فليس لمخضوب البنان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويق :

يا ظبية البان ترعى في خائله ليهنك اليوم ان القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك الامدمع الباكي
وعدت لعيذك عندي ما وفيت به يا قرب ما كذبت عيني عيناك
انت النعيم قلبي والعذاب له فما امرّك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى من علم العين ان القلب يهواك

واني ليشجيني قوله من كلمة نانية :

تهفو الى البان من قلبي نوازع وما بي البان من داره البان
اسد سمعي اذا غنى الحمام به كيلا يُبين سر الوجد اعلان
ورب دار اولتها بجانب وبهي الى الدار اطراب واشجان
اذا تلفت في اطلالها ابتدرت للقلب والعين امواه ونيران

كَلَمْ بَقْلِي أَداوِيهِ وَيَقْرِفُهُ^(١) طُولِ اِدْكَارِي لِمَنْ لِي مِنْهُ نَسِيَانٌ^(٢)
لَا لِلْوَأْنِمْ اِقْصَارُ بِلَاثَةِ عَنِ الْعَمِيدِ وَلَا لِلْقَلْبِ سِلْوَانُ
عَلَى مَوَاعِيدِهِمْ خَلْفَ اِذَا وَعَدُوا وَفِي دِيُونِهِمْ مَطْلٌ وَلِيَّاتُ
هُمْ حَرَضُوا بِوَفَاءِ الْعَهْدِ آوَنَةً حَتَّى اِذَا عَذَّبُونِي بِالْمَنَى خَانُوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان ، اذ يشبهنَّ بالحديقة ، تحمل
الثمر حيناً وتعمرى من الورق حيناً ، واليك قوله من قصيدة طويلة :

يُولِينَ مَا فِيهِ اِغْرَامٌ وَآوَنَةً يُولِينَ مَا فِيهِ لِمَعشُوقِ سِلْوَانُ
وَلَا يَدُومَنَّ عَلَى عَهْدٍ لِمَعْتَقِدٍ اِنِّى ؟ وَهَنْ كَمَا شَبَهَنَ بِسْتَانُ
يَمِيلُ طَوْرًا بِجَمَلٍ ثُمَّ يُعَدُّهُ وَيَكْتَسِي ثُمَّ يُلْفَى وَهُوَ عَرِيَانُ
تَعْدُو الْفَتَاةُ لِمَا خَلَّ فَانْ غَدَرْتُ^(١) رَاحَتْ يَنَافَسُ فِيهَا الْخَلَّ خُلَانُ
مَا لِلْحَسَنِاتِ مَسِيئَاتٍ بَنَّا وَلَنَا اِلَى الْمَسِيئَاتِ طُولُ الدَّهْرِ تَحْنَانُ
وَاِنْ تُبْعَنَ بِعَهْدٍ قَلْبٌ مَعْدُورَةٌ اَنَا نَسِينَا وَفِي النِّسْوَانِ نَسِيَانُ
يَكْفِي مُطَالَبَنَا بِالذِّكْرِ نَاهِيَةً اِنْ اَسْمَنَا الْغَالِبُ الْمَشْهُورُ نِسْوَانُ
لَا نَلْزِمُ الذِّكْرَ اِنَّا لَمْ نَسْمَ بِهِ وَلَا مُنْجِنَاهُ بَلْ لِلذِّكْرِ ذِكْرَانُ
فَضْلُ الرِّجَالِ عَلَيْنَا اِنْ شِئْتُمْ جُودٌ وَبَأْسٌ وَاحْلَامٌ وَادْهَانُ
وَإِنْ فِيهِمْ وِفَاءٌ لَا تَقُومُ بِهِ وَلَنْ يَكُونَ مَعَ النِّقْصَانِ رَجْحَانُ
صَدَقْنَا مَا شِئْنَا لَكِنَّا تَقْنَصُنَا مِنْهُمْ عَيْنٌ تَلَاقِنَا وَأَدْمَانُ^(٢)
اِنْكَبَى وَازْكَى حَرِيقًا فِي جَوَانِحِنَا خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ وَالْأَلْوَانِ فَيَرَانُ
اِذَا تَرَقَّرْنَ وَالْأَشْرَاقُ مَضْطَرَمٌ فَيَهْنُ لَمْ يَمْلِكِ الْأَسْرَارُ كِتْمَانُ
مَالًا وَتَارَ فَقَدْ غَادَرْنَ كُلَّ فَقَى لَا بَسْنَ وَهُوَ غَزِيرُ الدَّمْعِ حَرَّانُ

(١) الكلم : الجرح . وقرف الجرح اصابته من جديد
(٢) عين جمع غيناء وهي جملة العين ، والامادن الأطباء

تحضلُ منهنَّ عينُ فهي باكية ويستحر فؤاد وهو هيات

وقال فتى في ابنة عمه ، وقد تجنت عليه وغدرت به :

أأحبابنا لو تعلمون بحالنا لما كانت اللذات تشغلكم عنا

تشاغلتمُ عنا بصحبة غيرنا وابدئتم الهجران ما هكذا كنا

وآليتُم ان لا تحونوا عهدنا فقد وحياء الحب ختم وما خنا

غدرتم ولم تغدروا ختمت ولم نخن وحلمت عن العهد القديم وما حلنا

وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو ، اخو الخنساء ، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها ؟

وقما هذا على ان لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه ، ثم طعن في احد الايام .

فمضى سنة كاملة . فقصرت زوجه في السهر عليه ، والرفق به . ولا كذلك

امه الروم . قالوا : وسمع يوماً امرأة تقول لامة : كيف حال صخر ؟ فقالت :

نحن بخير ما دمنا نرى وجهه . وسمع اخرى تقول لامرأته كيف حال صخر ؟

فقالت : لا حي* فيرجى . ولا ميت فينمى !! وحكي انه جلس يوماً ليستريح

وقد رفع له سجع البيت ، فرأى سلمى واقفة تحدث رجلاً من بني عمها وقد

وضع يده على عجزتها ، فسمعه يقول لها : ابيع هذا الكفيل ؟ فقالت عن

قريب ا فقال صخر لامة : علي بسيفي ، لأنظر هل صدق ام لا . فأنته به

فجرتده ، وهم بقتل سلمى . فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله .

فبكى وقال :

ارى أم صخر لا تملُ عيادتي وملتُ سليمى مضجعي ومكاني

فأي امرىء ساوى بأمر حليمة فلا عاش الا في شقاء وهوان

اهمُ بأمر الحزم لو استطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

وما كنت اخشى ان اكون جنازة لديك ومن يغتر بالحدثان

ويذكرون ان غسان بن جهم كان مفتوناً بابنة عمه ، ثم تزوجها ، فلما

حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده ، ثم حنثت في يمينها ، فأنشدها في نومها

ليلة الزفاف :

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة
ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهداً
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب
حلفت له يوماً ولم تنجزي وعداً
غدرت به لما ثوى في ضريحه
كذلك ينسى كل من سكن اللحد

ويذكرني هذا الشعر بقول ابي العتاهية :

إذا ما انقضت عني من العيش مدتي فإن غناء الباقيات قليل
سيعرض عن ذكرى وتُنسى مودتي ويحدث من بعد الخليل خليل
وهذه طبيعة العالم يا صاح ، فاقض من اوطارك ما انت قاض ، واترك
الوهم للمجانين !!



مِيزَانُ الْحُبِّ (١)

مِيزَانُ الْحُبِّ فِيمَا يَرَى جَمِيلٌ أَنْ يَهْبِ الْمَحِبُّ لِلْمُحِبُّوبَةِ دَمَهُ وَمَالَهُ ، وَانْظُرْ كَيْفَ يَقُولُ :

لَمَّا اللَّهُ مِنْ لَا يَنْفَعُ الْوَدَّ عِنْدَهُ	وَمَنْ حَبَلَهُ إِنْ مُدَّ غَيْرَ مَتْنٍ
وَمَنْ هُوَ ذُو لَوْنَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ	عَلَى ثِقَةٍ خَوَانٌ كُلُّ أَمِينٍ
فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا بَشِينَةً تَبْتَغِي	يَمِينِي وَلَوْ عَزَّتْ عَلَيَّ يَمِينِي
لَأَعْطَيْتُهَا مَا جَاءَ يَبْنِي رَسُولُهَا	وَقُلْتُ لَهَا بَعْدَ الْيَمِينِ سَلِينِي
سَلِينِي مَالِي يَا بَشِينُ فَإِنَّمَا	يُبَيِّنُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَمِينٍ
فَمَا لَكَ لَمَّا خَبَّرَ النَّاسَ أَنِّي	أَسَأْتُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ لَمْ تَسْلَمِينِي
فَأَبْلَى عَذْرَاءً أَوْ أَجِيءُ بِشَاهِدٍ	مِنَ النَّاسِ عَدْلٍ أَنَّهُمْ ظَلَمُونِي
فَلَيْتَ رَجُلًا لَفِيكَ قَدْ نَذَرُوا دَمِي	وَمَمُّوا بِقَتْلِي يَا بَشِينُ كَلَمُونِي
إِذَا مَا رَأَوْنِي طَالِعًا مِنْ ثُنْيَةٍ	يَقُولُونَ مِنْ هَذَا؟ وَقَدْ عَرَفُونِي

(١) فِي كِتَابِ «الْإِخْلَاقُ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ» بَحْثُ مَفْصَلٍ عَنِ الْحُبِّ مِنَ الْوُجْهِةِ الْفَلَسْفِيَّةِ، فَلْيَرْجِعْ

إِلَى الْقَارِئِ إِنْ شَاءَ

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الايام السوالف ، والليالي الخوالي !!

ويذكرون ان المتوكل احب ان ينادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى ما بقي من ظرفه ، وشهوته لما كان عليه . فأحضره وقد كبر وضعف ، فسقاه حتى سكرو قال لخدمته شفيع : اسقه افسقاه وحياء بوردة . وكانت على شفيع أثواب موروثة . فمد الحسين يده إلى درع شفيع . فقال المتوكل : اتجسس غلامي بحضرتي؟ فكيف لو خلوت به ! ما احوجك يا حسين الى ادب ! وكان المتوكل غمز شفيعاً على العبث به ، فقال الحسين : يا سيدي ! اريد دواة وقرطاساً . فأمر له بها فكتب :

وكالوردة البيضاء حيتاً بأحمر
من الورد يسقى في قراطق كالورد
له عبتات عند كل تحية
بكفيه يستدعي الحلي إلى الوجد
تمنيت ان أسقى بكفيه شربة
تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشاً لم ابت فيه ليلة
من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر ، وهم بتقديم الغلام اليه ، لو كان مما تسمح به
النفس !!

وانظر ما يقول ابن هانيء في ذكرى أيامه السوالف :

قمن في مآتم على العشاق
ولبسن السواد في الاحداق
وبكين الفراق بالغم الرط
ب المقتنا وبالحدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا
من حق عشقت يوم الفراق
ومع الجيزة الذين غدوا دم
ع طليقي ومهجة في وثاق
حاربهم نواب الدهر حتى
آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنوا للوداع حتى ترى الأج
يوم راهنت في البكاء عيوناً
أمنع القلب ان يذوب ومن يند
رب يوم لنا رقيق حواشي اللم
قد لبسناه وهو من نفحات الـ

ياد فوق الاجياد كالأطواق
فتقدمت في عنان السباق
ع جمر الغضى عن الاحراق
و حسناً جوال عقد النطاق
مسك درع الجيوب درع التراقي

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالي :

أيام لهوي هل مواضيك عود
رُزئتُ شبابي عودةً بعد بداية
سُلبتُ سواد العارضين وقبله
وبُذلتُ من ذاك البياض وحسنه
لشتان ما بين البياضين : معجب
و كنت جلاء للعيون من القذى
هي العين النُّجْل التي كنت تشتكى
فمالك تأسى الآن لما رأيتها
تشكى اذا ما اقصدتك سهامها
كذلك تلك النبل من وقعت به
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها
وبيضاء يخبوء رُها من بياضها
اذا ما التقى السكران : سكر شبابها
لهوت بها ليلاً قصيراً طويلاً
وكم مثلها من ظبية قد تقيأت

وهل لشبابٍ ضلّ بالأمس مُنشد
وهنّ الرزايا بادئاتٌ وعود
بياضها المحمود اذ انا أمرود
بياضاً ذمياً لا يزال يُسود
أنيق ومنشوء إلى العين انكد
فقد جعلت تقذي بشيبي وترمد
مواقمها في القلب والرأس أسود
وقد جعلت مرمى سواك تعمّد
وتأسى اذا نكبت عنك وتكد
ومن صُرفت عنه من القوم مُقصّد
كموقعها في القلب بل هو اجهد
ويذكو له ياقوتها والزبرجد
واكوابها ، كادت من اللين تعقد
وما لي الا كفها مُتوسّد
ظلالٍ واغصان الشبيبة مُمدّد

ليالي سنتريس (١)

وقد اكتر صاحب البدائع من الحنين الى سنتريس ، وهي مهوى قلبه ،
ومنية روحه ، اذ كانت مَلْعَب صباه ، وميدان لهوه ، في أيامه السوالف ،
ولياليه الخوالي !

وانظر كيف يقول :

ليالي النـَّيل والمـَّذات ذاهبةٌ وجدي عليكِ اشجاني فأضناني
لو يرجع الدهر لي منكن واحدةً في سنتريس ويُدني بعضُ خلاني
إذا تبَّين دهرِي كيف يرجمني من ظلم مي ومن عدوان احزاني
كم ليلة لي بذاك النهر سالفه قضيتها بين غاداتٍ وولدانِ

وذِي دلالٍ هو الدنيا وزينتها يُردي الأسود بظرفٍ منه نَعسانِ
كأنما فعل عينيهِ بعاشقهِ فعل المدامة في اعطاف نشوانِ
شربت من ريقه راحاً مشعشةً بخالص الوُدِّ لم تُمزج بسُلوانِ
وكم حبيبٍ براح الريق أسكرني وكم جميلٍ بورد الخلد حيَّاني

يا مُوقد النار في قلبي مؤججةً وقاطناً بين أنهار وريحانِ
عرَّج عليّ فما نفسي بصابرةٍ على نواك وما طرفي بوسنانِ
واليك قوله من كلمة ثانية :
إيه يا فتنة الوجود سلامٌ من مَشوقٍ متيم القلب عانِ

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل

لو يشاء الهوى حوتك ضلوح^١ حائثات^٢ على صباك^٣ حواني
فارحمي فانياً من الوجد يشقى^٤ بغرام^٥ مؤجج^٦ غير فان
رنتقت^٧ وردة^٨ الليالي فأمسى^٩ يرقب الصفو^{١٠} من خلال الأماني

...

آه لو يسمح الزمان ونلقى^{١١} من طوى^{١٢} قريهم^{١٣} عينا^{١٤} الزمان
وترى سنتريس^{١٥} والدهر غاف^{١٦} ما قضينا^{١٧} من الليالي الحسان
حين كنا من السرور نشاوى^{١٨} في نجاة^{١٩} من النوى^{٢٠} وأمان
نتساقى^{٢١} الحديث عذبا^{٢٢} شهيا^{٢٣} وقطوف^{٢٤} المنى رطاب^{٢٥} دواني

...

يا خليلي^{٢٦} والرفيق^{٢٧} معين^{٢٨} أسعفاني^{٢٩} ببعض^{٣٠} ما تملك^{٣١} كان
أبتغي^{٣٢} آسياً^{٣٣} فقد عيل^{٣٤} صبري^{٣٥} من توالي^{٣٦} الوجيب^{٣٧} والخفقان^{٣٨}
أبتغي^{٣٩} صاحباً^{٤٠} توله^{٤١} قبلي^{٤٢} وشجاء^{٤٣} من الجوى^{٤٤} ما شجاني^{٤٥}
فلقد^{٤٦} يسعف^{٤٧} الجريح^{٤٨} أخاه^{٤٩} ويواسي^{٥٠} الزميل^{٥١} في الاحزان^{٥٢}

...

وقد تلحن هذه القصيدة البلبل الفريد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري
وما أروع شعر الوجدان إذا غني بمثل صوته العذب الجميل !!

صبا نجد

وما أشوق القلب الى شميم صبا نجد ! فقد حبيبته الينا الشعراء حتى لنجد
(صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ، حين يقول :

النجاء النجاء من أرض نجد	قبل ان يعلق الفؤاد بوجود
إن ذاك الثرى لينبت شوقاً	في حشاميت اللبابات صلد
كم خلي غدا اليه وأمسى	وهو يهذي بعلوة أو بهند
وظباء فيه تلاقى المؤالي	والمعادي من الجمال يجند
بشتيت من المباسم يغري	وسقام من المحاجر يعدي ^(١)
وبنان لولا اللطافة ظنت	لجنائياتها برائن أسد
وحديث إذا سمعناه لم ند	رب نخمر نضحنا أم بشهد
أنيفت من براقع الخرز والقز	خدود قد برقعوها بورد

ويقول الطغرائي :

يا حبذا نجد وأعراق الثرى	لدن وانفاس النسيم رقاق
فهواؤه خصر النسيم وتربه	حالي الأديم وماؤه رقرق
وبساكنيه ان استقر بنا النوى	تشفي النفوس وتمسك الارماق

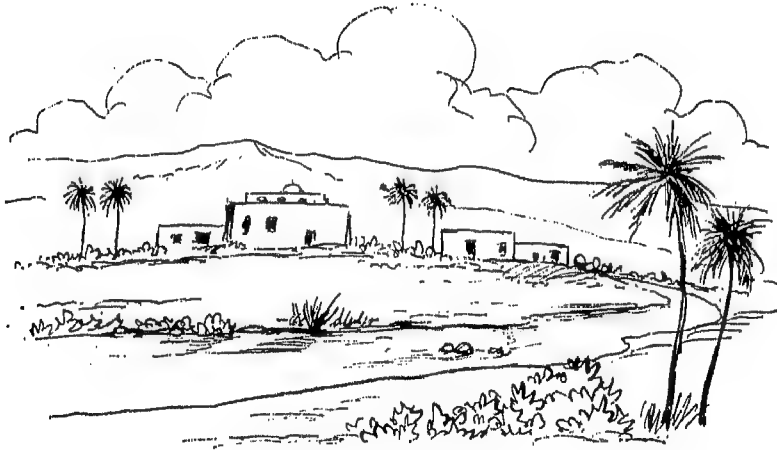
ويقول ابن الخطيب :

خذنا من صبا نجد أماناً لقلبه	فقد كان رياها يطير بلبه
وإياك ذاكَ النسيم فإنه	إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو احببتا لعلمتا	مكان الهوى من مغرم القلب صبه

(١) المراد بالمبسم الشتيت الثغر المغلج

تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غراماً على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
وقال ابن التعاويذي :

يا رفيقي هل لذهاب أيا م تقضت حميدة من مرّد
أنجداني بوقفة في مغاني الـ حيّ إن جزمتما بأعلام نجد
وابكيها بمقلتي واسألاها من سقاها ماء المدامع بعدي
جنباً عندها مصارع من ما ت بداء الغرام فالشوق يعدي
فبأكنافها جاذرُ رمل بين اثوابها برائن أسد



جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى ان عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب :
أعان طرفي على جسمي واحشائي بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي
وكنت غيراً بما يحني على بدني لاعلم لي ان بعضي بعض ادوائي
ومثله قول الارجاني :

تمتعا يا مقلتيّ بنظرةٍ وأوردتما قلبي اثمر المواردِ
أعينيّ كفا عن فؤادي فانه من البغي سعى اثنين بي قتل واحد

ويرى الشريف الرضي ان قلبه سبب شجاءه ، ويقول :
قلب كيف علقت في امراكم ولقد عهدتكُ تفلت الاشراكِ
أكثبتَ حتى اقصدتكُ سهامهم قد كنت عن امثالها انهاكا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى هذا الذي جرت عليّ من جراًكا
لا تشكون إليّ وجداً بعدها هذا الذي جرت عليّ يداكا
لاعاقبتك بالغليل فانني لولاك لم اذق الهوى لولاكا

ويأمر صرّدر على ان كانت احفانه حجاب قلبه ، ويقول :
لواظنا تجني ولا علم عندها وانفسنا مأخوذةٌ بالجرائر
ولم أر أغبى من نفوس عفافٍ تصدق اخبار العيون الفواجر
ومن كانت الاجفان حجاب قلبه أذنّ على احشائه للفواقر

وقال ابن الاحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه :
يهم بجيران الجزيرة قلبه وفيها غزال فاتر الطرف ساحره
يؤازره قلبي عليّ وليس لي يدان بمن قلبي عليّ يؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع :
قالوا عشقتَ فقلتَ كم من فتنة لم تغن فيها حكمة الحكماء
إن الذي خلق الملاحنة لم يشأ إلا شقائي في الهوي وبلائي
ولله الامر من قبلُ ومن بعد ا

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٢١	مداراة الرقباء	٣	الاهداء
١٢٤	بجمل الحسان	٥	مقدمة
١٢٨	الامر للمحب	١٣	مذاهب النسيب
١٣٠	حمل السلام	١٤	موجبات الدموع
١٣٤	دموع الغانيات	٢٠	عذر ارباب الدموع
١٣٩	ندم المفارق	٢٢	الاكتفاء بالدموع
١٤٤	غربة المحب	٢٤	الفرز إلى الدموع
١٤٦	الامل الضائع	٢٧	الدمع عند الوداع
١٥٠	الكتمان	٣٠	الدمع بعد الفراق
١٥٦	قسوة التجني	٣٣	شكوى الصباية
١٥٩	ظلم الحبيب	٤٠	عند منازل الاحباب
١٦٢	قساة القلوب	٥٥	وشاية الدموع
١٦٥	سيف الفراق	٥٧	سلطان الحب
١٦٨	الهرب من الفراق	٦٢	غرام النساء بالنساء
١٦٩	غراب البين	٦٥	طيف الخيال
١٧٠	فقد العزاء	٦٨	خيال البحتري
١٧٣	بكاء الشباب	٧٦	اليأس والرجاء
١٧٦	بلايا الغيرة	٧٩	العتاب
١٨٠	الاستعطاف	٩٣	نوح الحمام
١٨٦	الحنين	٩٩	التقرب بالدموع
١٩٢	الرفق بالحبيب المريض	١٠٢	ثورة الوجد
١٩٤	الذبول والنحول	١٠٨	الارق والسهاد
		١١٦	الطبيعة في انفس الشعراء

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٩	القلب والكبد	١٩٧	اماني المحبين
٢٢٠	بكاء الملاح	٢٠٠	الهيبة والخضوع
٢٢٧	بكاء الحلائل	٢٠٢	الرضى بالقليل
٢٢٩	لوعة الشوق	٢٠٤	شفاء المحب
٢٣٢	راحة السلوان	٢٠٦	القلب الخافق
٢٣٤	غدر الغواني	٢٠٨	مثال الحبيب
٢٣٨	ميزان الحب	٢١٠	اهوال الصدود
٢٣٩	الليالي الخوالي	٢١٢	التلفت الى معالم الوجد
٢٤١	ليالي سنتريس	٢١٤	الصد والنوى
٢٤٣	صبا نجد	٢١٥	القريب والبعيد
٢٤٥	جناية العين والقلب	٢١٦	حلاوة الملام
٢٤٦	قضاء الله	٢١٨	رؤية الضمير

